غرفة الانتظار

قصص

د. يوسف عز الدين عيسى

الدار المصرية اللبنانية

تمهيد

هذه قصص مختارة من أعمال د. يوسف عز الدين عيسى، وهي قصص غير تقليدية، ضمن مائتي قصة، كلها مكتوبة بأسلوب حديث وشيق، معظمها من المرحلة الأخيرة للمؤلف باستثناء بعض الأعمال القليلة المبكرة، وتضم المجموعة أيضا أعمالا تنشر في هذا الكتاب لأول مرة. والقصص كلها فيها ما يشبه الحلم أو الصدمة، والكثير من الإثارة، وبعد أن يفيق منها القارئ يجدها تجسيدا وتحليلا لكل هموم الإنسان فى عصرنا الحديث، وتصلح لكل زمان ومكان .

من قصص المرحلة الحديثة : «البيت » و «غرفة الانتظار » و «جراحة عاجلة » و «البحث عن حلم » و «القاعة الكبرى » و «سيمفونية » و «عزف منفرد » و «بدون عنوان » ، وهي جميعا كُتبت أثناء وبعد أن كتب د. يوسف عز الدين عيسى رواية «الواجهة » ، التي تعد قمة في الرواية العربية، وتعتبر هذه القصص تكملة لهذه المرحلة بما وصل إليه أسلوبه وفكره، حيث نرى الرمز مجسدا وممزوجا بالواقع والخيال وأيضا بالسخرية، بطريقة شديدة التشويق وفريدة في حداثتها، كأنها نوتة موسيقية، ليس بها كلمة واحدة يمكن الاستغناء عنها، فحتى الأسماء تختفي في معظم الأعمال، كما لا يمكن أيضا إضافة كلمة واحدة، فكل ما يتم وصفه له

دلالات ودور في السياق وتركيبة الفكرة، التى تشبه قصيدة الشعر أو القطعة الموسيقية . وما هو جدير بالذكر أن القصتين «القاعة الكبرى » و «بدون عنوان » وُجِدَتَا بين أوراق المؤلف ونُشِرَتَا في جريدة الأهرام، بعد رحيل صاحبها، وهما تنشران لأول مرة الآن في هذا الكتاب .

أما القصص من المرحلة المبكرة، فهي أيضا تعتمد على الصدمة والرمز وشدة التشويق، ولذلك فالقصص غير مرتبة حسب تاريخ كتابتها ولكن تاريخ كل عمل مدون في النهاية. وقد نلاحظ أن السخرية أقل مرارة في الأعمال المبكرة، مثلما في «سيكوسيتا » ، التي تشعر أنها كُتِبَتْ اليوم. وتتجلى أيضا في بعض القصص قدرة المؤلف على الكتابة بأساليب مختلفة، لا تقل روعة عن الأعمال الرمزية مثل «سر الحياة » و «جماعة من المساكين ». وما هو جدير بالذكر أن «خطاب إلى الله » كتبها المؤلف أثناء دراسته في جامعة «شيفيلد » بإنجلترا، ضمن مجموعة أذيعت في «بي بي سي ».

أهم ما يميز هذا الكتاب هو عرض أسلوب الكاتب وفكره في مراحل مختلفة وهي أعمال لكل زمان ومكان، ويظهر فيها تفرد أفكاره منذ أعماله المبكرة رغم التغيرات التي طرأت على أسلوبه وفكره على مر السنين .

سيكوسيتا

انظروا، ها هي ذي عاصمة دولة سيكوسيتا التي ولدت فيها، وأعيش فيها وأعتقد أنني سأموت فيها. إنها مدينة كغيرها من المدن؛ بها شوارع وحارات وعمارات وأكواخ، ومحال تجارية، وزحام شديد. ولأول وهلة لا يرى زائرها ما يستلفت النظر أو يثير الانتباه، إذ إن العجائب والغرائب التي تحدث في هذه الدولة لا تستطيع العين رؤيتها .

شعرت باكتئاب شديد عندما سمعت دقات الطبول منبعثة من شتى أنحاء المدينة وأصوات المنادين صائحين :

- يا أهل سيكوسيتا، غدًا يقام المِهرجان العام، يا أهل سيكوسيتا، غدًا يقام المهرجان العام ...

امتلأ قلبي بالحزن والفزع، ومن عادتي أن أسرع الخطى عندما أشعر بالحزن أو الخوف. أسرعت الخطى هائمًا على وجهي في أنحاء المدينة، سائرًا على غير هدى. وأينما سرت أسمع صراخ المنادين يطاردني، ودقات الطبول وكأنها مطارق تهوى على طبلتي أذني وتكاد تمزقهما .

إن هذا المهرجان الذي يقام في شهر أغسطس من كل عام؛ ربما يكون أقرب إلى الصواب لو أطلقنا عليه «يوم

الحزن العام»، إذ في ذلك اليوم الرهيب يَرْتَصّ أصحاب الطراطير على منصة عالية تقام في الميدان الكبير يتوسطهم رئيس الوزراء .

وأصحاب الطراطير في دولة سيكوسيتا هم عِلْية القوم، إذ إن ذوي الجاه والسلطان في هذه الدولة يتميزون بوضع طراطير على رؤوسهم، تزداد طولًا مع ارتفاع المستوى الاجتماعي لصاحب الطرطور. ولذا فإن طرطور رئيس الوزراء، وهو أعلى طرطور في الدولة، يبدو فوق رأسه مرتفعًا وكأنه إحدى مانعات الصواعق .

في هذا اليوم، تعزف الموسيقى، موسيقى رديئة للغاية كالعادة، لا توافق فيها ولا انسجام، وترفرف الأعلام وتحتشد الجماهير في الميدان الكبير لرؤية الحادث العظيم الذي يتكرر كل عام. وينتظم شبان الدولة وفتياتهم في طابور طويل، إنه اليوم الذي يتقرر فيه مصير كل منهم وتحدد فيه معالم مستقبلهم. معذرة إذا قطعت حديثي لأحدثكم عن شيء آخر، فلقد مرت أمامي الآن عربة فاخرة يجرها ستة جياد، ويقبع في ركن من أركانها أحد عِلْية القوم. أجل، لابد أنه من ذوي الجاه والسلطان، إذ إن طرطوره يرتفع فوق رأسه ارتفاعًا ملفتًا للنظر لدرجة أنه يبرز من ثقب في سقف العربة صُنِعَ خصيصًا لهذا الغرض. لقد توارت العربة الآن عن نظري وسأعود للحديث عن المهرجان .

ماذا كنت أقول؟ آه، تذكرت. كنت أقول إن شباب البلد، ذكورًا وإناثًا، يمرون أمام رئيس الوزراء وعلى ظهورهم أرقام مسلسلة كتلك التي نراها على ظهور لاعبي كرة القدم .

لم يغمض لي جفن طوال الليل وسهرت مع أختي التي تصغرني بعام، تواسيني وتحاول رفع روحي المعنوية قائلة :

- من يدري؟ أليس من الممكن أن تتحقق أمنيتك وتصبح موسيقيًا؟

بدأت الطبول تدق الآن دقات رتيبة، ذات إيقاع بطيء يشبه إلى حد كبير دقات الطبول في الجنازات الرسمية، وبدأ سير الطابور. كان الطابور طويلًا ولكنني كنت في المقدمة، إذ لم يكن أمامي سوى خمسة أفراد، ولذا فالرقم الذي كان مكتوبًا على ظهر القميص الذي أرتديه كان رقم «ستة ».

هل لاحظتم وجود هذا الشيء الذي كان يضعه كل واحد من الشباب تحت إبطه؟ إن الشاب رقم واحد، مثلًا، يتأبط منشارًا صغيرًا وهذا يدل على رغبته في أن يصبح نجارًا. والذي يليه يتأبط سماعة، وهذا بطبيعة الحال يدل على رغبته في أن يصبح طبيبًا. والثالث يضع تحت إبطه ميزانًا، وهذا دليل على رغبته في مزاولة مهنة المحاماة أو النيابة أو القضاء. أما الرابع،

كلا، بل الرابعة، فهي فتاة ذات وجه رائع الجمال، ولكنها مسكينة، إنها تقف في الطابور متوكئة على عصا ربما تكون ضحية مرض شلل الأطفال أو غيره من الأمراض، لست أدري، ولكن الذي أعرفه أنها تتأبط رواية «ذهب مع الريح» أي أن أمنيتها أن تصبح مؤلفة. وخلفها في الطابور فتاة أخرى، لا تستطيع السير بمفردها لأنها كفيفة، ولذا فلقد اصطحبت معها أمها الواقفة الآن بجوارها لتسحبها عندما يتحرك الطابور. كانت تحمل تحت إبطها ورقة كبيرة مكتوبًا عليها بخط واضح أنيق كلمة «مطربة». أما أنا فلقد كنت أحمل تحت إبطي آلة موسيقية، الكمان، لأنني أعشق الموسيقى وأتمنى أن أصبح موسيقيًا .

لا داعي لإضاعة وقتكم الثمين في ذكر ما يحمله باقي الشبان والفتيات. انطلق النفير يعلن سير الموكب، وسار الموكب على أنغام الموسيقى الرديئة التي تشبه إلى حد كبير طرقات تنبعث من حانوت حداد أو سمكري سيارات. وسار الشبان والفتيات بخطى بطيئة ووجوه شاحبة، ولست أدري لماذا هي شاحبة. جميع الوجوه شاحبة ربما يكون ذلك راجعًا لسوء التغذية أو الخوف من المصير الرهيب الذي ينتظرهم في صندوق الدولة المقدس، لست أدري .

ولابد أن أشرح لكم ما هو صندوق الدولة المقدس هذا، إنه صندوق كبير الحجم بلا غطاء موضوع أمام رئيس

الوزراء. في هذا الصندوق المقدس كما يسمونه توجد مئات الأوراق. في كل ورقة من هذه الأوراق كُتِبَتْ مهنة من المهن: نجار، حداد، كمساري ترام، ترزي، طبيب، محام، قاض، رسام، موسيقي، بهلوان... إلخ.... وكل من يصل إلى صندوق الدولة المقدس من السائرين في الطابور يضع يده في الصندوق ويلتقط ورقة دون أن يدري شيئًا عما هو مكتوب فيها، إذ إن الورقة مطوية أربع طيات، ثم يفرد الورقة ويقرأ بأعلى صوته المهنة المكتوبة فيها فتصبح مهنته التي يتحتم عليه مزاولتها طوال حياته بأمر الدولة، بصرف النظر عن رغباته وأمنياته ومواهبه ومؤهلاته .

وصل إلى الصندوق المقدس الشاب رقم واحد الذي يتأبط المنشار، فدقت الطبول دقات سريعة الإيقاع تشبه تلك التي كانت تدق عند تنفيذ حكم الإعدام أيام الثورة الفرنسية، ثم توقفت الدقات. وضع الشاب يده في الصندوق والتقط ورقة ثم فردها بلهفة وقرأ ما فيها بصوت مرتفع، كما تنص التقاليد العريقة في سيكوسيتا. كانت المهنة المكتوبة في الورقة «ترزي» وكما تقضي التعليمات. ركع الشاب أمام رئيس الوزراء الذي وضع طرف عصا، يحملها في يده، على رأس الشاب قائلًا :

- سر على بركة الله، فأنت ترزي حتى آخر رمق في حياتك .

جلس رئيس الوزراء وقام الشاب وسار يتعثر في خطاه ليقدم نفسه إلى «إدارة القوى العاملة» ليبدأ مزاولة المهنة التي قررها له صندوق الدولة المقدس .

وأقبل الشاب الثاني الذي يحمل تحت إبطه «سماعة». التقط ورقة، فتحها بيد مرتجفة وقرأها فإذا المهنة المكتوبة فيها «ساعي بريد». ركع أمام رئيس الوزراء الذي وضع عصاه على رأس الشاب وقال :

- سر على بركة الله، فأنت «ساعي بريد» حتى آخر رمق في حياتك .

وجاء دور الثالث، الذي يحمل الميزان تحت إبطه. دس يده في الصندوق والتقط ورقة فإذا بها «عربجي حنطور» ركع أمام رئيس الوزراء الذي وضع طرف عصاه على رأسه وقال :

- سر على بركة الله، فأنت «عربجي حنطور» حتى آخر رمق في حياتك .

ثم جاء دور الفتاة العرجاء. كانت الورقة التي التقطتها تحمل كلمتي «راقص باليه». وضع الحاكم طرف عصاه على رأسها وهي راكعة أمامه وقال :

- سيري على بركة الله، فأنت راقصة باليه حتى آخر رمق في حياتك .

وعندما تقدمت الفتاة الضريرة مستندة على يد أمها، أخذت تتحسس الصندوق ثم دست يدها والتقطت ورقة. أخذت أمها الورقة وقرأتها بصوت مرتجف فإذا المهنة التي من نصيبها «إصلاح ساعات». خرت الفتاة ساجدة أمام رئيس الوزراء فاصطدم أنفها بحذائه . وضع عصاه على رأسها وقال :

- سيري على بركة الله، فأنت «مصلحة ساعات» حتى آخر رمق في حياتك .

قامت الفتاة وسارت مطأطئة الرأس، وقد أمسكت الأم بذراع ابنتها التي تعثرت وكادت تنكفئ على وجهها وهي تهبط درجات المنصة، فأسرعت أمها واحتضنتها باكية .

أسرعت دقات قلبي، فلقد جاء دوري. وضعت يدي في صندوق الدولة المقدس والتقطت ورقة. قرأت ما فيها بلهفة فإذا المهنة التي قررها لي هي «رسام ».

كان من المفروض أن أركع أمام رئيس الوزراء، ولكنني لم أفعل. ظللت واقفًا وقد شعرت بدوار. أخذت أدير بصري في أنحاء المكان في ذهول وانعقد لساني فلم أستطع أن أنبس بكلمة. كانت جميع العيون مصوبة نحوي في دهشة وترقب. وارتفع من بين عِلْية القوم صوت يقول :

- كيف يجرؤ هذا المخلوق على عدم السجود أمام رئيس الحكومة؟

لم أستطع معرفة صاحب الصوت. نظرت إلى الجماهير وكأنني أستنجدهم. ولكن وجوههم كانت خالية من أي تعبير وكأنهم موتى . بغتة، وجدت نفسي أصيح بأعلى صوتي قائلًا :

- كلا، كلا، لن أصبح رسامًا، بل سأكون موسيقيًا، فأنا أعشق الموسيقى ولا أصلح للرسم. إنني مصاب بعمى الألوان ..

انبعثت من الجماهير همهمة، تحولت إلى زمجرة. التف حولي رجال الشرطة للقبض عليَّ، ولكن رئيس الوزراء أشار إليهم بيده قائلًا :

- اتركوه، لا تلقوا القبض عليه، ينبغي على الحاكم أن يفسح صدره لصرخات المحكومين. ثم التفت نحوي وقال :

- ألا تشكر الصندوق المقدس الذي جعلك رسامًا ولم يجعلك زبالًا أو متسولًا؟

شعرت بيأس مظلم. أمدني اليأس بمزيد من الشجاعة فقلت :

- أنا أفضل الموت على مزاولة مهنة لا تتفق مع ميولي وموهبتي. لابد أن أصبح موسيقيًا.. لن أكون رسامًا .

في هذه اللحظة رأيت بنادق رجال الشرطة تصوب نحوي منتظرة الأمر بإطلاق النار. شعرت برغبة في البكاء ورغبة في الموت في الوقت نفسه، ولكن رئيس الوزراء أمرهم بعدم إطلاق الرصاص. لم أفرح لعدم إطلاق الرصاص، بل شعرت بالحزن والعذاب الذي يطحن الإنسان عندما يومض في القلب قبس ضئيل من الأمل بعد أن يكون قد بلغ مرحلة اليأس المريح. قال رئيس الوزراء :

- سأثبت لك ولجميع هذه الجماهير أن صدري لا يضيق بحماقات السفهاء الذين لا يعرفون مصلحة أنفسهم. سأخالف لأول مرة التقاليد العريقة لدولة سيكوسيتا التي حرصنا عليها منذ أجيال عديدة. سأعطيك الفرصة لتصبح موسيقيًا كما تريد لو أقنعتنا وأقنعت هذه الجماهير بموهبتك الموسيقية التي تدعيها. اعزف لنا لحنًا بهذه الكمان التي تحت إبطك. إذا أعَجَبَ لحنُك الجماهير فسأمنحك الحق في أن تكون موسيقيًا، فهذه الجماهير التي أمامك هي التي ستستمع لموسيقاك طوال حياتك، ومن الظلم أن أفرض عليهم سماع موسيقى لا يرغبون في سماعها. هيا، اعزف لحنًا .

ضبطتُ أوتار الكمان وعزفت لحنًا رائعًا يهز أوتار القلوب. انتظرت أن تصيح الجماهير وتهلل إعجابًا به،

ولكن وجوههم ظلت جامدة بلا أي تعبير. لم ينبس أحد منهم بكلمة. عزفت لحنًا آخر أجمل منه، ولكن الجماهير التي اعتادت سماع الموسيقى الرديئة التي يعزفها الحدادون والخبازون والسَمكريّة الذين فُرضت عليهم مهنة الموسيقى عن طريق صندوق الدولة المقدس لم تعجبهم موسيقاي. اهتزت طراطير علية القوم وصاح واحد منهم قصير، عريض وقد نفرت عروق رقبته الغليظة من الغضب قائلًا :

- هل تسمي هذه موسيقى؟ ألا تخجل من نفسك؟

وصاح واحد من الجماهير قائلًا :

- أيها العنيد المغرور، هل تعرف موهبتك أكثر مما يعرفها صندوق الدولة المقدس .

اشتد هياج الجماهير وصراخهم مطالبين بالقبض عليَّ ورميي بالرصاص أو الزج بي، على الأقل، في ظلام السجن لأكون عبرة لمن يعتبر. قال لي رئيس الوزراء وعلى فمه ابتسامة استهزاء وفي حديثه نبرة سخرية :

- موسيقاك لم تعجب الجماهير. هل اقتنعت الآن أو مازلت في حاجة لمزيد من الإقناع؟ لن ألقي القبض عليك، ولن أزهق روحك الشريرة المتمردة، فالحاكم ينبغي أن يكون عطوفًا على المحكومين حتى ولو كانوا

من السفلة المغرورين أمثالك. وعلى أية حال، أليس الرسم فنًا كالموسيقى؟ كلها فنون ولا فرق بينهما .

وصاح أحد أصحاب الطراطير قائلًا :

- لقد أخطأت في حق الدولة وأهنت صندوق الدولة المقدس وأظهرت غرورًا ورعونة وتبجحًا لم يحدث له نظير في تاريخ سيكوسيتا الموغل في القدم. قل بأعلى صوتك : «أنا مخطئ وصندوق الدولة المقدس لا يخطئ .»

كان لابد أن أطيعه حتى لا تهجم عليَّ جموع الجماهير وتمزق جسدي. أنا لا أخشى الموت ولكنني لا أطيق الألم. واقتنعت بأن هذه الجماهير التي فقدت القدرة على تذوق الموسيقى العذبة والفن الأصيل لا تستحق أن أعزف لها ألحاني ورأيت أختي بين الجماهير تصرخ وتولول خوفًا عليَّ من العقاب، فصحت قائلًا :

- أنا مخطئ وصندوق الدولة المقدس لا يخطئ .

وصاح رئيس الوزراء قائلًا :

- هيا اركع. لماذا تقف محملقًا في وجهي هكذا؟

ركعت . ووضع طرف عصاه على رأسي قائلًا :

- سر على بركة الله، فأنت رسام حتى آخر رمق في حياتك .

ثم قمت، ووضعت الكمان تحت إبطي واستمر الموكب. ومن العجيب أن تاريخ دولة سيكوسيتا لم يسجل حالة واحدة، ولو عن طريق المصادفة، تطابقت فيها المهنة التي يلتقطها الشاب أو الفتاة من الصندوق مع الشيء الذي يحمله تحت إبطه. ومع ذلك فالأمور تسير في سيكوسيتا، ولا أحد يعلم كيف تسير .

تحتم عليّ الآن أن أنشئ استديو للرسم لأمارس فيه مهنتي التي فرضتها عليّ الدولة عن طريق صندوقها المقدس. استأجرت غرفة تقع بين دكان نجار ومحل جزارة وجعلتها مرسمًا لي. اشتريت الألوان وجميع أدوات الرسم، على الرغم من إصابتي بعمى الألوان. وضعت اللوحة على الحامل ورأيت أن أبدأ بمحاولة رسم أختي، وهي فتاة رقيقة تنظم الشعر وقرأت معظم دواوين الشعراء. وقفت أمامي استعدادًا لرسمها. وفي أثناء محاولة تحضير الألوان ومزجها قفزت قطتنا المدلَّلة وأخذت تتمسح في قوارير الألوان فسكبتها على المائدة وتلطخت فروتها بجميع ألوان قوس قزح. وفي ثورة غضب أمسكت بالقطة وقذفت بها في اللوحة، فتلطخت اللوحة ببقع عديدة من الألوان المتنافرة. غادرت المرسم غاضبًا لأغسل يدي من الألوان التي علقت بها قائلًا :

- يا لروعة الاستهلال !

ظلت أختي واقفة في مكانها في انتظار عودتي، وفي أثناء غيابي اقتحم المرسم رجلان، هما: مفتش الدولة الأكبر ومفتش الدولة الأصغر. إنهما يطوفان للاطمئنان على حسن سير الأعمال الفنية في الدولة .

نظرا إلى اللوحة الملطخة بالألوان. قال المفتش الأكبر للمفتش الأصغر :

- هل تفهم شيئًا من هذا الرسم؟

- كلا، لا أفهم منه شيئًا .

- ولا أنا، وما دمنا نحن الاثنين لا نفهمه ولا نفقه منه شيئًا فلابد أنه عمل رائع. هيا نحاول فهمه وتحليله حتى لا نتهم بالجهل والغباء. انظر، ألا ترى هذه البقعة الزرقاء التي تعلو البقعة الصفراء؟

- نعم، أراها .

- ماذا توحي إليك؟

- توحي بأمل بعد يأس .

- ولماذا لا توحي بيأس بعد أمل؟

- ربما، وهذه البقعة السوداء ذات الجناحين فوق هذا الجزء الأخضر المستدير، إنها ترمز لوحي يرفرف فوق رأس فنان .

- يا للروعة، يا للجمال، يا للعبقرية .

- إنها أجمل لوحة سريالية رأيتها في حياتي. إنني أرشحها لنيل الجائزة الأولى في السريالية وتعليقها في مدخل متحف الدولة .

- إنها جديرة بذلك حقًا .

حمل المفتش الأصغر اللوحة وخرج بصحبة المفتش الأكبر لتعليقها في مدخل متحف الدولة ومنحها أعلى جائزة. ظلت أختي تشيعهما ببصرها مشدوهة وقد التزمت الصمت ولم تدر ماذا تقول .

دخلت فلم أجد اللوحة في مكانها فوق الحامل، فسألت أختي :

- أين اللوحة؟

أخبرتني بما حدث. ضربت كفًا بكف وصحت قائلًا :

- غير معقول. غير معقول مطلقًا. لقد حدث هذا عندما قذفت القطة في اللوحة .

فابتسمت أختي وقبلتني قائلة :

- مبروك. ألف مبروك. انتهى الأمر ونالت لوحتك الجائزة الأولى في السرياليزم. هل تفهم أكثر من المفتش الأكبر والمفتش الأصغر؟

واظبت على تلطيخ اللوحات بألوان متنافرة لا معنى لها وأسهمت القطة في معظمها ونلت حظوة كبيرة لدى المسؤولين عن الفنون التشكيلية في الدولة، وأصبحت لي مدرسة متميزة في الرسم بهذه الطريقة، أطلقت عليها اسم «مدرسة القطة» ولم يعرف أحد علاقة القطة بهذا الموضوع سوانا نحن الاثنين، أختي وأنا .

مر عام وأقبل شهر أغسطس وجاء دور أختي الشاعرة لتلتقط من صندوق الدولة المقدس الورقة التي ستقرر مستقبلها. دقت الطبول وصاحت الحناجر معلنة عن موعد مهرجان الدولة المقدس الذي سيقام غدًا. في هذه الليلة ظلت أختي ساهرة تذرف الدمع ولا أمل لديها مطلقًا في أن تصبح شاعرة، إذ إن الدولة تنسى دائمًا أن تضع في صندوقها المقدس ولو ورقة واحدة تحمل كلمة «شاعر ».

سارت في الموكب حاملة تحت إبطها ديوان شعر كبير الحجم، ولكن الورقة التي التقطتها من الصندوق المقدس قررت أن تكون مهنتها «جرسونة» في أحد الفنادق .

استلمت أختي عملها الجديد في الفندق وارتدت فستانًا قصيرًا أزرق يرتفع فوق الركبة بمقدار خمسة عشر سنتيمترًا كما تنص لائحة الفندق .

أخذت تقدم الطعام والشراب لرواد مطعم الفندق ذي الخمسة نجوم. أما جميع دواوين الشعر التي كانت في حوزتها فلقد خبأتها في ركن مظلم بالسندرة جنب آلتي الموسيقية، الكمان، التي علاها التراب. لقد أصبح نظم الشعر وقراءته محرمًا على أختي كما سبق أن حُرم عليَّ عزف الموسيقى .

كان رواد الفندق لا يدركون سبب الحزن الدفين الذي يطل من عيني أختي من آن لآخر والدموع التي تنساب منهما أحيانًا .

وحانت فرصة ذهبية تتيح لي عزف الموسيقى التي يهفو لها قلبي ويحن إليها، قالت لي أختي ذات يوم وعلى ثغرها ابتسامة :

- هل تحب أن تعزف موسيقى؟

كنت في هذه اللحظة منهمكًا في تلطيخ إحدى لوحاتي بألوان لا أكاد أميزها. التفتُّ نحو أختي التفاتة سريعة كالتفاتة حمامة وقلت :

- هذا سؤال لا يحتاج إلى إجابة. ولكن كيف أعزف موسيقى والدولة تحرم عليَّ ذلك؟

- سيقام حفل تنكري راقص في الفندق، والفندق في حاجة إلى فرقة موسيقية للعزف في أثناء الحفل، وسيضع جميع الموسيقيين على وجوههم أقنعة تخفي

شخصياتهم، فلماذا لا تشترك في العزف أنت وبعض أصدقائك من ذوي الموهبة الموسيقية الأصيلة الذين أجبرهم صندوق الدولة على أن يصبحوا نجارين وحدادين وخبازين وجزارين؟ في هذه الحالة لن يكتشف أحد شخصياتكم .

- فكرة رائعة. سأسرع لأزف هذه البشرى إلى أصدقائي الموسيقيين .

- سيستمتع رواد الفندق في هذه الليلة بالاستماع إلى موسيقى حقيقية من موسيقيين موهوبين .

اصطف في صدر القاعة الكبرى بالفندق ثلاثون عازفًا تختفي وجوههم خلف أقنعة مختلفة الأشكال، في يد كل منهم آلته الموسيقية، وفي يدي الكمان التي أخرجتها من مخبئها ونفضت عنها الغبار .

بدأ العزف، وبدأ الرقص. انسابت من الآلات الموسيقية أنغام سماوية وكأنها من عزف الملائكة .

ولكن آذان الجماهير التي اعتادت سماع الموسيقى الرديئة وتكيفت معها لم تستسغ هذه الألحان الجميلة ونفرت من سماعها. ارتفعت بعض الأصوات معلنة استياءها من العزف. ثم تحول الاستياء إلى غضب، وتحول الغضب إلى معركة بالأيدي نشبت بين الجماهير وأفراد الفرقة الموسيقية .

في أثناء المعركة سقط القناع من على وجهي، كما سقطت بعض الأقنعة الأخرى وصاح واحد من الجماهير قائلًا :

- يا للعار. إنهم ليسوا موسيقيين. إن هذا الشاب رسام، وهذا خباز وذاك نجار، وهذا طبيب، وهذا كناس، وهذا مهندس.. إنهم مزورون .

وصاح آخر قائلًا :

- هذا هو سر رداءة عزفهم. كيف يجرؤون على مخالفة صندوق الدولة المقدس ويزاولون مهنة لم يخلقوا لها ولم يسمح بها الصندوق؟ لقد سادت الفوضى !

انقض رجال الشرطة على أفراد الفرقة الموسيقية محاولين إلقاء القبض عليهم ولكن معظمهم تمكن من الهرب. وألقوا القبض عليَّ، ومثلت أمام المحكمة المقدسة العليا. حكم عليّ بالسجن ثلاثين عامًا لمزاولة مهنة غير التي قررها لي صندوق الدولة المقدس، على أن تصحبني في السجن آلة الكمان باعتبارها شريكة لي في اقتراف هذه الجريمة .

في السجن توطدت أواصر الصداقة بيني وبين السجان، إذ إن ذلك السجان رسام موهوب وكان يتمنى أن يزاول هذه المهنة، ولكنه أصبح سجانًا بفضل صندوق الدولة المقدس .

كان السجان يزورني خلسة في زنزانتي ويرسم لي صورًا رائعة، كما كنت أعزف له على الكمان ألحانًا شجية .

وفي إحدى الليالي اقترح السجان أن يهيئ لي وسيلة للهرب من السجن على أن نهرب معًا، أنا وهو !

في مساء اليوم المتفق عليه تسلقنا معًا سور السجن. ولم أنس الكمان التي حرصت على أخذها معي. تنبه أحد الحراس. أطلق الرصاص فأصاب السجان الذي سقط جثة هامدة .

لم أصدق أنني نجوت. ظللت أعدو مبتعدًا عن السجن. أبصرت سيارة متجهة نحو الحدود، حدود سيكوسيتا. أشرت للسائق فتوقفت السيارة. قَبِل صاحبُها أن يحملني معه حتى آخر حدود سيكوسيتا .

عندما أشرفنا على الحدود رأيت قصرًا على ربوة. في الطابق العلوي للقصر نافذة مضاءة مفتوحة على مصراعيها، يبدو منها طيف فتاة تعزف على كمان. شعرت برغبة في اللجوء إلى هذا القصر. أبديت رغبتي لصاحب السيارة في مغادرتها في هذا المكان فتوقفت السيارة وهبطت منها .

انطلقت أعدو نحو القصر. كانت الفتاة مازالت واقفة تعزف على الكمان لحنًا جميلًا. وجدت باب حديقة

القصر مفتوحًا، فدخلت. جلست على دكة خشبية بجوار نافورة مستندًا على جذع شجرة ضخمة. ظللت منصتًا إلى الموسيقى العذبة المنبعثة من النافذة ثم غلبني النوم فنمت .

وجدت نفسي واقفًا على خشبة مسرح أقود فرقة موسيقية ضخمة أمام حشد هائل من الجماهير. كانت الموسيقى رديئة غير متوافقة ونشازًا، وكنت غير راضٍ عن هذا العزف السيئ، وكلما أمرت العازفين بإعادة العزف ازداد سوءًا .

نظرت إلى صالة المسرح والألواج والبناوير فإذا بها مكتظة بالجماهير لا يوجد كرسي واحد خالٍ، ولكن جميع الكراسي في وضع معكوس يجعل الجالسين عليها مديرين ظهورهم للمسرح! كانوا يتحدثون فيما بينهم بأصوات مرتفعة ويتبادلون النكات ويضحكون محدثين بذلك ضجة تطغى على صوت الموسيقى النشاز التي تعزفها الفرقة بقيادتي .

يئست من قدرة الفرقة على العزف السليم فجلست على خشبة المسرح ووضعت رأسي بين كفي وأجهشت بالبكاء .

في هذه اللحظة صعدت على خشبة المسرح طفلة في نحو التاسعة تحمل في يدها باقة من الأزهار. قبلتني في جبهتي ومسحت دموعي بمنديلها. قمت ونظرت

إلى الطفلة مشدوهًا. كانت ملامحها تشبه إلى حد كبير ملامح أختي .

سلمتني باقة الأزهار قائلة :

- هذه تحية لك من شخص مجهول. لا تيأس ولا تحزن. إن فرقتك تضم أعظم الموسيقيين وأمهر العازفين، ولكن كل واحد منهم يعزف على آلة غريبة عنه لم يعتد العزف عليها، ولو تبادلوا الآلات فيما بينهم واختار كل واحد الآلة التي يحسن العزف عليها لانسابت الموسيقى عذبة شجية .

وتقدمت نحو العازفين قائلة :

- أنت مثلًا، ينبغي أن تترك البيانو وتعزف على الفلُوت .

- وأنت اترك الكمان واعزف على البيانو وأنت اترك هذه الطبلة واعزف على الكمان ...

واستمرت تغيِّر وتبدّل حتى أصبح في يد كل عازف آلة غير التي كانت معه، ثم قالت لي :

- هيا اعزفوا الآن .

وهبطَتْ الطفلة من فوق خشبة المسرح وجلست على الكرسي الذي كان خاليًا في الصف الأول .

وضعتُ باقة الأزهار على خشبة المسرح وواجهتُ العازفين مستعدًا لقيادة الأوركسترا، ولكنني سمعت الطفلة تصيح موجهة حديثها للجماهير قائلة :

- ألا تخجلون من أنفسكم؟ أديروا وجوهكم نحو المسرح وأنصتوا للموسيقى .

فدارت جميع الكراسي وكأنها تدور على قرص متحرك وساد الصمت واتجهت العيون جميعها نحو خشبة المسرح. لاحظت أن جميع العيون شديدة الاتساع بشكل غير مألوف، والآذان تشبه آذان الأرانب، فسرت في جسدي رعشة، ولكنني تغلبت على الخوف ورفعت عصا القيادة استعدادًا لبدء العزف، وبدأ العزف وإذا بالموسيقى التي كانت نشازًا تتحول إلى أنغام تهز أعماق النفوس .

عندما انتهى العزف دوى في القاعة صوت التصفيق وانطلق الهتاف من الحناجر. انحنيت لتحية الجماهير، ثم أشرت لأعضاء الفرقة فقاموا وأخذوا ينحنون للجماهير. بدأت أستعد لمغادرة المسرح، ولكن الطفلة قفزت على خشبته مرة أخرى وقالت لي :

- لا تخرج من الباب العادي حتى لا تلتف الجماهير حولك ويضغطون عليك ويطبقون على صدرك فتلفظ آخر أنفاسك ضحية إعجابهم الشديد بك. هيا معي أقودك إلى باب خلفي لا يعرفه أحد .

قادتني الطفلة من يدي وخرجنا معًا إلى الشارع من ذلك الباب الخلفي. ما كدت أرى الشارع حتى أذهلني جماله. إنه شارع أرضه غير منبسطة، بل تعلو ثم تهبط ثم تعلو ثم تهبط، تحف به من الجانبين أشجار لم أر لها مثيلًا. وعلى مسافات متقاربة توجد محطات للأوتوبيس عجيبة المنظر، تشبه الأباجورات. رأيت الأوتوبيسات تسير ثم تقف عند المحطات بضع لحظات ثم تعاود السير، ولكن على الرغم من ازدحام الشارع بالمارة فإن أحدًا لم يحاول ركوب أي أوتوبيس. كانت جميع الأوتوبيسات تسير خالية من الركاب، لا يوجد بها سوى السائق وكمساري يحمل آلة موسيقية نحاسية ضخمة ينفخ فيها فتنبعث منها أنغام تشبه أنغام موسيقى الجاز .

قلت للطفلة :

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى أختك. إنها في انتظارنا لتتلو علينا إحدى قصائدها .

- هيا نركب هذا الأوتوبيس .

ضحكت الطفلة وقالت :

الأوتوبيس؟ الأوتوبيسات في هذه المدينة ليست للركوب .

- ليست للركوب؟! ما فائدتها إذن؟

- إنها للزينة !

- للزينة؟! الأوتوبيسات في أية مدينة وسيلة من وسائل النقل .

- إلاّ في هذه المدينة. إنها هنا تسير خالية دون أن يفكر أحد في ركوبها .

- ولماذا؟

- منذ أجيال عديدة، عندما سارت الأوتوبيسات لأول مرة في أنحاء المدينة أسرع الجميع متزاحمين على ركوبها دفعة واحدة، فانحشروا في أبوابها ولم يستطع الركوب أحد. ومنذ ذلك الحين تسير خالية. ومع مرور الأيام نسى الناس وظيفتها وأصبحت للزينة .

- وكيف نصل إلى منزل أختي؟ هل توجد تاكسيات في هذه المدينة؟

- عدد الركاب يزيد على عدد التاكسيات، ولذا فلن نجد تاكسيًا خاليًا في أية ساعة من ساعات النهار أو الليل .

- وما العمل؟

- نركب هذا البالون .

نظرت فوجدت بالونًا أزرق في حجم الفيل، معلقةٌ به سلة صفراء تتسع لاثنين. ركبنا وجلسنا على مقعدين متقابلين. قلت للطفلة :

- ولكنني غير معتاد على ركوب البالونات ولا خبرة لي بقيادتها .

- اعزف موسيقى بهذه الكمان تجد البالون يرتفع ويسير في الاتجاه الذي تريده .

غير مصدق لكلام الطفلة، بدأت أعزف لحنًا، وإذا بالبالون يرتفع. شعرت بخوف وحاولت الهبوط فلم أستطع. قالت الطفلة :

- لا تخف، استمر في العزف .

واصلت العزف، وفي هذه اللحظة استيقظت من نومي، وإذا باللحن الذي كنت أعزفه ينبعث من النافذة التي وقفت خلفها الفتاة العازفة على الكمان .

انتفضت واقفًا واتجهت نحو سلم القصر. صعدت درجات السلم المؤدية إلى الباب وضغطت على زر الجرس. اختفت الفتاة من النافذة وسمعت وقع أقدام مهرولة على السلم الداخلي للقصر. ثم بدأت أسمع دقات غير منتظمة. فُتِحتْ طاقة صغيرة مستديرة في الباب وأطل منها وجه رجل في نحو الستين يلبس نظارة سميكة العدسات. قال :

- من الطارق؟

- إنسان مسكين هارب من السجن جوعان وعطشان .

أسرع الرجل بإغلاق الطاقة. عاودت الضغط على زر جرس الباب بإصرار بعد نحو خمس دقائق فتحت الطاقة مرة أخرى وأطل منها وجه الرجل. قال بانفعال غاضب :

- ماذا تريد؟ اغرب عن وجهي. أنا لا أفتح منزلي لإيواء المجرمين خريجي السجون .

قلت وفي حديثي نبرة استعطاف :

- ألا تسألني عن سبب دخولي السجن؟

بصبر نافد قال :

- لماذا سجنت؟

- عزفت موسيقى، وكان صندوق الدولة المقدس قد قرر لي أن أكون رسامًا إلى آخر رمق في حياتي .

انفرجت أسارير وجه الرجل صاحب القصر وارتسمت على فمه ابتسامة عريضة وفتح الباب قائلًا :

- ادخل، ظننتك المفتش الأصغر. إن حالتك تشبه حال ابنتي .

دخلت وجلست مع الرجل في بهو لم أر في حياتي أروع ولا أفخم منه. كان صوت الدقات لا يزال منبعثًا من غرفة مجاورة. قام الرجل بصعوبة وقال لابنته :

- كفّي عن الدق، لم يعد له لزوم. لا تصدعي رأس ضيفنا. إنه موسيقي مثلك وليس مفتش الدولة .

فتوقف الدق. قال الرجل :

- قصة ابنتي تشبه قصتك، فهي تعشق الموسيقى وتجيد عزفها، ولكن «صندوق الدولة المقدس» أراد لها أن تصبح إسكافيًا، فتركت الموسيقى التي حرصت عليها وأخذت تمارس إصلاح الأحذية. كان قلبي يتمزق وأنا أراها تبكي ليلًا ونهارًا لحرمانها من عزف الموسيقى. فبنيت لها هذا القصر عند حدود سيكوسيتا بعيدًا عن العمران حتى نكون بمنأى عن مفتشي الدولة لأهيئ لها حرية عزف الموسيقى كما تشتهي. ولما سمعت جرس الباب خيل إليها أنك المفتش فتركت الكمان وأسرعت لمزاولة المهنة التي فرضت عليها، إصلاح الأحذية .

ثم نادى ابنته قائلًا :

- تعالي يا عزيزتي رحبي بضيفنا .

أقبلت فتاة رائعة الجمال، بنفسجية العينين بيضاء البشرة ذات ابتسامة عذبة، صافحتني بحرارة. قال لها

أبوها :

- إنه هارب من السجن الذي زجوا به فيه لأنه عزف موسيقى بعد أن أمره صندوق الدولة أن يكون رسامًا. إنه يهوى الموسيقى مثلك. وهو الآن جوعان وظمآن، فاروِ ظمأه وأعدي له طعامًا .

أسرعت الفتاة بإحضار دورق من الماء المثلج ابتلعتْ نِصفه، ثم اختفت داخل المنزل وظللت جالسًا مع أبيها. بعد قليل أقبلت ودعتني لتناول الطعام الذي التهمته في بضع دقائق .

بقيت في ضيافتهم نحو ثلاثة أشهر شعرت في أثنائها وكأنني أحد أفراد العائلة وعلمت أن والدة الفتاة توفيت منذ نحو عامين. كنت أعزف للفتاة وهي تعزف لي .

شعرت بأن روحي قد بدأت تسري في جسدي بعد أن كنت أحيا بلا روح .

وحدث ما كان من المتوقع أن يحدث، أحببت الفتاة وأحبتني وفي أحد الأيام قلت لها :

- أرى مظاهر الغنى والبذخ في قصركم هذا، فما هي مهنة والدك؟

قالت بفخر واعتزاز :

- تاجر روبابيكيا .

- تاجر روبابيكيا؟! هذا آخر ما كنت أتوقعه .

- يقول والدي إن هذه هي الحسنة الوحيدة لسيكوسيتا !

- كيف؟

- يتمتع أبي بموهبة نادرة المثال في التأليف القصصي والروايات. خُلق موهوبًا في هذا الفن. وكان يتمنى بطبيعة الحال أن يكون مؤلفًا. ولكن، منذ أعوام بعيدة، عندما ذهب يوم المهرجان العام لالتقاط مهنته من صندوق الدولة المقدس، كانت المهنة التي من نصيبه «تاجر روبابيكيا». منذ تلك اللحظة حُرّم عليه التأليف وأصبح ممنوعًا من الكتابة واضطر لممارسة مهنته كتاجر روبابيكيا، يشتري الأشياء القديمة بثمن زهيد ويصلحها لبيعها بسعر مرتفع. إن بدروم منزلنا هذا مليء بمئات المؤلفات الرائعة التي كتبها سرًا ولا يجرؤ على نشرها حتى لا يعرض نفسه للعقاب. إنه يكتبها لمجرد إرضاء هوايته وممارسة موهبته الأصلية. الشيء العجيب أن مهنته كتاجر روبابيكيا درت عليه من الأموال ما لا يرقى إليه الخيال، فأصبح من أصحاب الملايين، ولكن في أعماق نفسه حزنًا دفينًا. أدخل عليه في غرفته بغتة فأراه منفردًا بنفسه يبكي. مازال يتمنى أن يصبح مؤلفًا يمارس التأليف علانية لا في الخفاء. ولكنه يقول لي أحيانًا إن مهنته كتاجر روبابيكيا كانت سببًا في حصوله على ثروة لم يكن يحلم بها ستضمن

لي وله حياة مستقرة مترفة، ولو كان احترف التأليف كما كان يتمنى لعاش ومات فقيرًا معدمًا .

بعد ثلاثة أيام من هذا الحديث كنت جالسًا في البهو أعزف على الكمان وعلى مقربة مني جلس الأب ينصت لموسيقاي. رأيت الفتاة تهبط السلم مسرعة حتى كادت تتعثر في خطاها وهي تصيح :

- حدثت معجزة. قبضوا على أصحاب الطراطير وأحرقوا صندوق الدولة المقدس وقرر الشعب أن يختار كل مواطن المهنة التي يهواها والتي يرى نفسه صالحًا لها .

احتضنْتُ الكمان بقوة وكأنها كانت ضائعة وعثرت عليها، ووقفت أنظر إلى الفتاة مشدوهًا غير مصدق لما تسمعه أذناي. أما الأب فظل جالسًا والدهشة مرسومة بالألوان على ملامح وجهه. قال لابنته :

- وكيف عرفتِ ذلك؟

- سمعته في الراديو الآن. يقولون إن الجماهير هجمت على السجون تحاول كسر أبوابها لإطلاق سراح الذين سجنوا لمزاولة مهنة غير المهنة التي اختارها لهم صندوق الدولة الذي لم يعد مقدسًا وقبضوا على أصحاب الطراطير وجردوهم من طراطيرهم وأحرقوها في الميدان الكبير .

قلت :

- هيا نهرع إلى العاصمة لنشاهد هذا الحادث العظيم .

وضعْتُ كماني تحت إبطي، وارتدت الفتاة ثوبًا أنيقًا وأسرعنا بالخروج مع الأب الذي أخرج إحدى سياراته من الجراج وركبناها نحن الثلاثة منطلقين بها بأقصى سرعتها إلى العاصمة .

كانت الجماهير هائجة مائجة وكأنها في يوم القيامة. أسرعنا نحن الثلاثة بالوقوف بالقرب من باب أحد السجون والجماهير تحاول كسره. نجحوا في كسر الباب الضخم وكأنه سدٌّ انهار وتدفقت خارجة منه أمواج متلاطمة من المساجين. لمحتُ أختي خارجة من باب السجن بشعر أشعث ووجه أغبر ولكن السعادة كانت تطل من عينيها وترسم على فمها ابتسامة. لم أكن أعلم أن أختي سجنت. احتضنتها وقبلتها وقلت لها :

- لماذا سجنوك؟

قالت :

- ضبطوني متلبسة بنظم قصيدة شعر في وقت فراغي .

عام 1946

جراحة عاجلة

كانت الأضواء القوية مسلّطة على المريضة الموضوعة فوق الطاولة وبجوارها الجراح ومساعدان وطبيب التخدير وممرضة، وقد ارتدى الجميع المعاطف ناصعة البياض ولا يبدو من وجوههم سوى عيونهم التي يطل منها القلق .

انتهى طبيب التخدير من حقن المريضة بالمخدر، وبعد أن تأكد الجراح من أن المخدر تأثر به المخ وغابت المريضة عن وعيها تناول المشرط من الممرضة استعدادًا لفتح البطن ولكنه توقف، إذ تذكر أنه حتى هذه اللحظة لا يعرف سبب إجراء العملية.. ظل يعصر ذهنه .

هذا غير معقول. كيف أبدأ إجراء عملية لمريضة لا أعرف مرضها؟ شيء لم يحدث لي طوال حياتي وأعتقد أنه لم يحدث لأي طبيب آخر في جميع أنحاء العالم. ماذا أفعل الآن؟ !

شاعرًا بشيء من الخجل، همس لطبيب التخدير قائلًا :

- ألديك فكرة عن المرض الذي تعاني منه المريضة؟

بدت عينا طبيب التخدير مبتسمتين وقال :

- ليست مهمتي معرفة المرض، من المفروض أنها مهمتك أنت ومساعديك. إن دوري لا يتعدى التخدير .

قال الجراح وعيناه تتأرجحان بين المساعدين :

- هل يعرف أحد منكما سبب إجراء هذه العملية؟

لم يسمع إجابة، ولكنه سمع ضحكات خافتة تخترق اللثام المثبت بإحكام أمام أنف وفم كل منهما. سلم المشرط للممرضة واتجه مسرعًا نحو التليفون الموضوع في أحد أركان الغرفة وأدار رقمًا وانتظر برهة ثم سمعه من في الحجرة يقول :

- لم يخبرني أحد عن المرض الذي تشكو منه المريضة.. لا أحد منهم يعلم.. الممرضة؟ لم يخطر على بالي أن أسأل الممرضة فليست هذه مهمتها.. حسن، أنا منتظر .

في هذه الأثناء حانت منه التفاتة إلى طاولة العمليات فوجد الممرضة والأطباء الثلاثة يتبادلون الحديث والضحكات الخافتة .

لماذا يضحكون؟! أهذا موقف يدعو للضحك أم الألم؟! لماذا لا يتحركون؟! لماذا لا يهتمون؟ !

طال انتظار الجراح وهو ممسك بسماعة التليفون. خيل إليه أن رأس المريضة تحرك فشعر برعب شديد .

تكون كارثة لو تلاشى تأثير المخدر قبل إجراء العملية. ماذا أفعل لو حدث ذلك؟ في هذه الحالة ينبغي أن يسرع طبيب التخدير بحقن المريضة بالمخدر مرة أخرى. ولكن هل يقبل الطبيب تخدير المريضة مرتين قبل إجراء العملية؟ ربما .

وضع سماعة التليفون في مكانها وأسرع نحو طبيب التخدير وسأله :

- خيل إليّ أن رأس المريضة تحرك .

قال طبيب التخدير بفزع :

- رأس المريضة تحرك؟ لم ألاحظ ذلك .

- زيادة في التأكيد، ألا ينبغي تخدير المريضة مرة أخرى .

- ولكنها مازالت تحت تأثير المخدر .

- قد ينتهي ذلك التأثير في أية لحظة .

- عندما ينتهي نفكر في إعادة التخدير .

بغتة، وجدوا المريضة تجلس فوق المنضدة مادة ساقيها وتنفجر باكية. أذهلت المفاجأة كل من بالغرفة، وصاح الجراح وقد فقد السيطرة على أعصابه موجهًا حديثه لطبيب التخدير :

- ماذا تنتظر؟ أسرع بتخدير المريضة .

ربتت الممرضة على ظهر المريضة قائلة :

- لماذا تبكين يا أماه؟

قالت المريضة وهي تمسح دموعها بيدها :

- رأيت حلمًا روَّعني .

استبد حب الاستطلاع بالممرضة فقالت :

- ماذا رأيت؟

أرهف الجميع السمع للمريضة وهي تقول :

- رأيت الكلاب ..

صاح الجراح قائلًا للممرضة :

- ماذا تنتظرين؟

قالت الممرضة بفزع :

- أنتظر ماذا؟

- أسرعي بإحضار كتاب تفسير الأحلام .

قالت الممرضة بدهشة :

- كتاب تفسير الأحلام! أين أجده؟ !

- اسألي عنه في المكتبات !

قال أحد المساعدين بصبر نافد :

- ألا يستحسن إرجاء ذلك إلى ما بعد إجراء العملية؟

قال الجراح بهدوء :

- أريد الاطمئنان على نتيجة العملية. هذا الحلم قد يلقي ضوءًا على ذلك .

انطلقت الممرضة تعدو لتنفيذ ما طلبه الجراح، وظل طبيب التخدير يربت على ظهر المريضة حتى هدأ نحيبها، ثم أمسك بها برفق وأعادها إلى الوضع الذي كانت عليه وبدت محملقة إلى الضوء المنبعث من المصباح المثبت في سقف الغرفة قائلة بصوت ضعيف :

- أيها المصباح، أنقذني من الكلاب ..

أعاد الطبيب تحضير حقنة المخدر وغرزها في وريد المريضة التي لم يصدر منها ما يدل على شعورها بوخزتها، وما لبثت أن أغمضت عينيها وغابت عن الوعي. تذكر الجراح أنه لم يتلق ردًا على تساؤله في التليفون فأسرع وطلب الشخص الذي كان يتحدث معه. سمع همهمة خافتة فقال :

- ألو .

لم يسمع ردًا بل تحولت الهمهمة إلى ضحكات خافتة فصرخ قائلًا :

- ألو. لقد انتظرت طويلًا ولم يخبرني أحد عن المرض الذي تعاني منه المريضة التي سأجري لها العملية.. إنها معي هنا في غرفة العمليات.. وأفاقت واضطررنا لإعطائها حقنة مخدر أخرى .

ارتفع صوت الضحكات ولم يسمع أية إجابة فوضع السماعة بعنف في مكانها فوق آلة التليفون وأسرع نحو المريضة. اندفعت الممرضة داخل الغرفة وهي تلهث وفي يدها كتاب تفسير الأحلام الذي ناولته للطبيب قائلة بصوت متقطع :

- وجدته.. بعد عناء.. شديد .

اختطف الطبيب الكتاب وأخذ يتصفحه بعصبية وقد فقد القدرة على التركيز ثم ألقى الكتاب على الأرض قائلًا بغضب :

- لم يذكر الكتاب شيئًا عن الكلاب .

وقف شارد الذهن وقد بدا عليه التفكير العميق وقال :

- لست أدري كيف أجري جراحة دون معرفة المرض .

قال أحد المساعدين :

- الطريقة الحديثة في الجراحة هي البحث عن المرض في أثناء إجراء العملية، نفتح ونرى .

تناول الجراح المشرط من الممرضة وفتح بطن المريضة فتحة تمتد من أسفل الصدر حتى العانة وأخذ يبحث عن المرض. قال :

- جميع الأعضاء تبدو سليمة، أين المرض إذن؟

قال أحد المساعدين :

- قد يكون في الصدر .

أخذ الجراح يشق الصدر ويكسر الضلوع وبدأ يفحص الرئتين .

صاح أحد المساعدين قائلًا للجراح :

- أنت لم تحسن فحص الأمعاء. ألم تلاحظ الأورام العديدة التي في القولون الصاعد؟

ارتبك الجراح. ترك الصدر وأعاد فحص الأمعاء فرأى الأورام واضحة فسيطر على أعصابه وأخذ يستأصل تلك الأورام واحدًا بعد الآخر حتى أزالها ولم يبق أيُّ ورم. قال مخاطبًا أحد المساعدين :

- ألم تلاحظ تضخم إحدى الكُليتين؟

- الكليتان متضخمتان، ولكن تضخم إحداهما أكبر من تضخم الأخرى. وماذا أفعل الآن لا يمكن استئصال الكليتين .

- ربما يكون التضخم بسبب وجود حصى. شقها لنرى سبب التضخم .

شق الجراح إحدى الكليتين فوجد بداخلها حصاة كبيرة، أزالها، ثم شق الكلية الأخرى فوجدها مليئة بالحصى. أتم تنظيفها، وعندما تأكد من إزالة جميع الحصى أعاد الكليتين إلى ما كانتا عليه وشعر بارتياح، ولكنه ما لبث أن اكتشف التهابًا في الزائدة الدودية فاستأصلها، وكان على وشك خياطة الجرح وإنهاء العملية، ولكنه لاحظ أن الحوصلة المرارية متضخمة، فتحها فوجدها مليئة بالحصى فاستأصلها .

قال لمساعديه :

- أعتقد أنني أزلت أسباب جميع الأمراض التي تشكو منها هذه المريضة .

رد أحد المساعدين قائلًا :

- يخيل إليَّ ذلك .

بدأ الجراح في إعداد الإبرة والخيط اللازم لخياطة الجرح، قال :

- جراحة متعبة ولكنها نظيفة سوف تستعيد المريضة كامل صحتها .

بدا الارتياح على جميع الوجوه وظل أحد المساعدين ناظرًا إلى الإناء المليء بالدم الذي يمد المريضة بما يعوضها عن الكمية التي نُزفت بسبب الجرح متابعًا في الوقت ذاته حركات الكيس المطاط الذي ينبض مع الشهيق والزفير. وبينما يغرز الجراح الإبرة استعدادًا لعمل أول غرزة لخياطة الغشاء البريتوني انتفض كل من بالغرفة عندما فوجئوا بثلاثة كلاب عتاة يقتحمون الغرفة. صرخت الممرضة واهتزت يد الجراح وصاح قائلًا :

ما هذا؟! هل وصل الاستهتار وسادت الفوضى إلى هذا الحد؟! من أين أتت هذه الكلاب؟! وكيف يتركونها تقتحم غرفة العمليات؟ !

اتجهت نظرات الفزع نحو الكلاب الضخمة التي وقفت متجاورة تلهث متحفزة بأنيابها الحادة وأفواهها الفاغرة وألسنتها المدلاة التي يسيل منها لعاب لزج في حين أن عيون الكلاب كانت مصوبة نحو جسد المريضة التي لا تدرك شيئًا مما يدور حولها .

بيدين مرتعشتين حاول الجراح الإسراع بخياطة الجرح. صدر من المريضة أنين خافت جعل طبيب التخدير يسرع بتحضير حقنة جديدة لاحتمال انتهاء مفعول المخدر. ما كاد الجراح يعمل ثلاث غرزات حتى فوجئ بأحد الكلاب ينقض على جسد المريضة وينتزع قلبها ويلوذ بركن الغرفة .

بحركة تكاد تكون لا إرادية، أسرع الجراح محاولًا اختطاف القلب من بين فكي الكلب ولكن الكلب أخذ يزوم ويطلق أصواتًا مرعبة فتراجع الجراح وقد تصبب وجهه عرقًا. أغمى على الممرضة فانشغل أحد المساعدين بإفاقتها .

ما كاد الجراح يعود إلى جسد المريضة حتى صرخ الجميع عندما انقض كلب آخر على ذلك الجسد وانتزع إحدى الرئتين وأخذ يلتهمها .

أفاقت الممرضة من إغمائها عندما سمعت الصراخ. أسرع أحد المساعدين إلى الكلب الذي يلتهم الرئة وهُرع المساعد الثاني إلى الكلب الذي يلتهم القلب في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه الأعضاء، ولكن الكلب الثالث هجم على أحد المساعدين وطرحه أرضًا وأنشب أظافره في فخذه، فصرخ الجميع وانشغل المساعد الثاني بتضميد جرح المساعد الأول .

هجم الكلب الثالث على جسد المريضة وانتزع إحدى الكُليتين فأسرع الجراح إلى التليفون ليستنجد بالبوليس وأخذ يصيح صيحات هستيرية قائلًا :

- ألو.. ألو.. يا بوليس النجدة أسعفنا.. هجمت علينا الكلاب في غرفة عمليات مستشفى الإسعاف .

لم يسمع الجراح أية استجابة لندائه، ولكنه سمع همهمة تحولت إلى ضحكات وضوضاء غير واضحة الكلمات .

خُيّل لطبيب التخدير أنه سمع أنينًا حزينًا ينبعث من الجثة المسجاة فوق طاولة العمليات. وضع الجراح سماعة التليفون غاضبًا واتجه نحو الجثة لا يدري ماذا يفعل !

كانت الكلاب قد انتهت من التهام الأجزاء التي انتزعوها من الجسد فاستداروا نحو الجثة. طفرت من عين الجراح دمعة جففتها الممرضة. هجم الكلاب الثلاثة على المريضة. انتزع أحدهم ذراعها اليمنى والتهمها في مثل لمح البصر، وانتزع الثاني أمعاءها وابتلعها في حين أن الثالث قضم أحد ثدييها وازدرده ثم قضم الثدي الثاني والتهمه .

باس الجراح وجه المريضة وجلس جنب طاولة العمليات يبكي، فبكت الممرضة وأخذت تجفف دموعها

ودموع الجراح، ثم بكى المساعدان وطبيب التخدير، فأخذت الممرضة تجفف دموع الجميع .

من أماكن مجهولة انبعثت في الغرفة موسيقى حزينة. ذهل الجراح عندما رأى الدموع تسيل من عيني الجثة فأسرع أحد الكلاب وأخذ يلعق تلك الدموع ليروي ظمأه، ثم قضم أنف الجثة وازدرده والتهم شفتيها فبدت أسنانها وكأنها أسنان جمجمة. تناول الجراح المقص وقص خصلة من شعرها ووضعها في جيب معطفه ليحتفظ بها على سبيل التذكار .

دق جرس التليفون فأسرع الجراح للرد عليه. سمع صوتًا يقول :

- ماذا حدث؟ لماذا كل هذا التأخير؟

اختنق الجراح بالبكاء فلم تخرج الكلمات من فمه ووضع السماعة وعاد إلى ما تبقى من المريضة فوجد الكلاب قد التهمت الكبد والساقين .

قال الجراح :

- لم تعد هناك فائدة من وجودنا هنا مع هذه الكلاب .

التف الجميع حول الجثة يبكون فيما عدا الطبيب الذي فتح باب الغرفة استعدادًا لمغادرتها. فوجئ بوجود عدد هائل من البشر، نساء ورجال وشبان وصبية وأطفال

أمام غرفة العمليات ناظرين إلى الجراح في قلق وترقب
.

لم يكن الجراح ينتظر وجود كل هذا العدد ولم يحدث من قبل أن رأت عيناه مثل هذا المشهد. سمع أصواتًا تقول :

- طمئنا يا دكتور، هل نجحت العملية؟ هل يوجد أمل؟

تذكر الطبيب أنه مازال يرتدي اللثام ومازال يلبس القفاز. خلع اللثام وألقى به على الأرض، ثم خلع القفاز وألقى به جنب اللثام ونظر إلى الجماهير بعينين مبتلتين فرآهم من خلال دموعه وكأنهم أشباح، ودون أن ينطق بأية كلمة سار مطأطئ الرأس يشق طريقه والعيون المتوسلة تحملق فيه من كل اتجاه .

عام 1985

غرفة الانتظار

الغرفة فسيحة، تبدو جدرانها في حاجة إلى طلاء. على أحد جدرانها هيكل عظمي لإنسان بالحجم الطبيعي، وعلى جدار آخر نتيجة يعلوها التراب تشير إلى اليوم الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر، ويبدو أن هذه النتيجة لم يهتم أحد باستبدالها منذ عدة أيام، وربما منذ عدة أشهر أو عدة سنوات، إذ إن الجزء المكتوب عليه العام مكشوط. وعلى الجدار نفسه ساعة توقفت عقاربها عند الثالثة وتسع دقائق .

في وسط الغرفة منضدة مستديرة يلتف حولها خمسة رجال، أحدهم نحيل ذو أنف مدبب، والثاني قصير بدين، والثالث يبدو مقطب الحاجبين وهو مفرط في الطول يلبس نظارة سميكة العدسات، والرابع أفطس الأنف لم يهتم بحلاقة لحيته منذ أيام فبدت ناصعة البياض في وجهه الأسمر، والخامس شاحب الوجه ذو شارب ضخم وعينين خضراوين .

قال ذو الأنف المدبب موجهًا حديثه للرجل الأسمر :

- أنا جربت الثوم. إنه خير علاج للمصران الغليظ. خذ منه فصًا على الريق .

قال الرجل الأسمر :

- لا يمكنني أن أفعل ذلك، لديّ حساسية ضد الثوم .

قال الرجل الطويل وقد نفد صبره :

- إلى متى سنظل جالسين في هذه الغرفة؟ مللت الانتظار. الرجل الذي دخل قبلنا مضى عليه الآن أكثر من ساعة ولم يخرج .

قال الرجل الأسمر :

- حضرت قبل هذا الرجل، وكان المفروض أن يكون الدور دوري ولكن الرجل الذي أطل من الغرفة المجاورة استدعاه قبلي. هذه فوضى، ولو أنني لا أرى ما يدعو للعجلة .

قال شاحب الوجه ذو الشارب الكث :

- كان من الواجب أن يتسلم كل من يحضر رقمًا ليعرف دوره. لا أحد يدري الآن من منا عليه الدور .

قال الرجل الطويل :

- ماذا يحدث في الغرفة المجاورة؟

نظر الأربعة الآخرون إلى بعضهم متعجبين لعدم معرفة الرجل الطويل لما يحدث في الغرفة المجاورة. قال له الرجل القصير وعلى فمه ابتسامة سخرية :

- ألا تعرف ما هو المفروض أن يحدث في غرفة الكشف عند الأطباء؟ !

قال الرجل الطويل :

- هل هذه عيادة طبيب؟

ضحك الأربعة بصوت مرتفع عندما سمعوا هذه الجملة.
قال الرجل القصير :

- ألا تعلم أن هذا المكان عيادة طبيب؟

قال الرجل الطويل :

- لا أعلم أنها عيادة طبيب .

قال الرجل الأسمر :

- ولماذا حضرت إذن؟

- وجدتكم جالسين فجلست معكم .

قال ذو الشارب الضخم :

- ولماذا تتعجل الدخول في الغرفة المجاورة؟

- دخل الغرفة أحد الرجال وانتظرته يخرج فلم يخرج، وأعتقد أنه كان من الواجب أن أدخل الغرفة قبله، فلقد

كنت جالسًا هنا عندما حضر وسُمح له بالدخول قبلنا جميعًا .

قال الرجل الأسمر :

- أجلست طوال هذه المدة وأنت لا تعرف أن هذا المكان عيادة طبيب؟

- ومن أين لي أن أعلم ذلك؟

قال الرجل القصير مشيرًا إلى صورة الهيكل العظمي المعلقة على الجدار :

- ألم تر هذه الصورة؟! ألم تستنتج من صورة الهيكل العظمي أننا في عيادة طبيب؟

نظر الرجل الطويل إلى الصورة وأخذ يتأملها بضع لحظات ثم قال :

- لم ألاحظ وجود الصورة إلا في هذه اللحظة عندما لفتّ نظري إليها. وأي نوع من الأطباء هذا الطبيب؟ ما هو تخصصه؟

قال ذو الشارب الكثيف :

- يعالج جميع الأمراض. ألم تر اسمه على اللافتة المثبتة جنب الباب الخارجي؟

- لافتة؟ هل توجد لافتة جنب الباب؟

ثم نظر إلى ساعته وقام منتفضًا وسار مسرعًا نحو باب الغرفة المجاورة وأخذ يلطمه بشدة صائحًا :

- لا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك. نفد صبري .

لم تحدث أية استجابة لطرقاته، فعاد وجلس في مكانه غاضبًا شاحب الوجه . قال له الرجل القصير :

- إذا لم تكن مريضًا وفي حاجة إلى كشف طبي ففي إمكانك مغادرة المكان .

- ولماذا أغادر المكان؟ إنه مكان مريح وأجد في صحبتكم متعة وتسلية .

نظر الرجل الأسمر للرجل الطويل، ويبدو أنه كان على وشك توجيه سؤال إليه، ولكن في هذه اللحظة حدث ما جعلهم يتجهون جميعًا بأبصارهم نحو الباب الخارجي، إذ دخلت الغرفة شابة في نحو الخامسة والعشرين من عمرها، رائعة الجمال. جلست على كرسي بجوار صورة الهيكل العظمي. ظل الجميع محملقين في وجهها فأطرقت إلى الأرض، ثم أخرجت من حقيبة يدها مرآة وإصبع لصبغ الشفتين باللون الأحمر. بعد أن صبغت شفتيها وضعت إصبع الأحمر في حقيبتها وأخرجت علبة بودرة واستمرت تتزين غير عابئة بمن في الغرفة وكأنها بمفردها في حجرة نومها، ثم وضعت

المرآة وأدوات الزينة في حقيبتها. قال لها الرجل الطويل :

- لا يبدو عليك أي مرض، فهل حضرتِ لتؤنسي وحدتنا؟

قطبت حاجبيها وقالت :

- لستم وحيدين، أنا التي أشكو من الوحدة .

- آنسة أم سيدة؟

- هذه مسألة شخصية لا شأن لك بها .

احمر وجهه خجلًا، وبعد فترة قصيرة قال :

- مم تشكين، غير الوحدة؟

- من الحزن .

- مثلك لا ينبغي أن يحزن .

قالت بدهشة :

- لماذا؟ !

- أنتِ جميلة كالوردة .

- ومن أدراك أن الورود لا تحزن؟

أخذت تعبث بإصبعها، وبغتة انخرطت في بكاء عنيف، ثم قامت وأخذت تطرق باب الغرفة المجاورة. فتح الباب وأطل منه وجه رجل على فمه ابتسامة أشار لها بالدخول فدخلت وأقفل الباب .

ظل الخمسة ناظرين نحو باب الغرفة المجاورة وكأنهم ينتظرون خروج تلك الشابة الحسناء، ولكنها لم تخرج. قال الرجل الطويل منفعلًا :

- هذه فوضى، جاءت بعدنا ودخلت قبلنا جميعًا .

قال الرجل الأسمر :

- يبدو أنك كنت تتمنى أن تظل تلك الجميلة جالسة معنا .

- لا يهمني وجودها أو عدم وجودها، فقدت اهتمامي بالنساء .

- كم سنك؟

- واحد وسبعون عامًا .

صاح ذو الأنف المدبب في استنكار :

- واحد وسبعون عامًا؟! هذا غير معقول، إنك تبدو أكثر شبابًا مني. أنا أبلغ من العمر سبعين عامًا وأبدو أكبر

منك سنًا. من المستحيل أن تكون سنك واحدًا وسبعين عامًا .

قال الرجل الطويل بعصبية وانفعال شديد :

- هل أطلعك على بطاقتي العائلية لتصدق أن سني واحد وسبعون عامًا وخمسة شهور؟

قال ذو الأنف المدبب متحديًا :

- أجل أرني بطاقتك العائلية .

أخرج الرجل الطويل محفظة نقوده من أحد جيوب سترته وأخذ يبحث بيد مرتعشة في الأوراق المكتظة حتى عثر على البطاقة. ظهرت عليه الفرحة وكأنه عثر على كنز. سلم البطاقة إلى ذي الأنف المدبب قائلًا :

- ها هي ذي بطاقتي العائلية .

أخذ ذو الأنف المدبب يفحص البطاقة ثم قال :

- شيء عجيب، إنك تبدو أصغر من سنك بكثير، من يرك لا يقدر لك أكثر من خمسين عامًا .

اختطف الرجل الطويل بطاقته من ذي الأنف المدبب وقال للرجل القصير :

- أنت أيضًا تبدو خاليًا من الأمراض، فلماذا حضرت إلى هذا المكان؟

قال الرجل القصير وهو مطرق إلى الأرض دون أن يلتفت نحوه :

- وكيف عرفت أنني خالٍ من الأمراض؟

- هل تشكو من شيء؟

- أشكو من أشياء كثيرة .

- مثل ماذا؟

التفت نحو الرجل القصير وظل ناظرًا إليه بضع لحظات ثم قال :

- روماتيزم في المفاصل وانتفاخ في الأمعاء وأوجاع في عضلات الرقبة والكتفين وعرق النَّسا وحَرقان في البول واضطراب في الأعصاب وألم شديد في الكُلية اليمنى .

قال ذو الشارب الضخم :

- اطمئن، هذا الطبيب سيريحك من جميع هذه الأمراض، إنه ذائع الصيت، ما من مريض قصده إلا وشُفي. اصبر قليلًا وسيأتي دورك بلا شك. ما علينا سوى الانتظار .

- لا وقت عندي للانتظار. تركت حفيدي مريضًا بالمنزل ولا يوجد معه سوى الخادم وأريد الانتهاء بأقصى سرعة لأعود للاطمئنان عليه .

قال الرجل الأسمر :

- ولماذا لم تحضر حفيدك معك؟

- لم أكن أعلم أن هذا المكان عيادة طبيب .

قال الرجل الطويل :

- أنت أيضًا لم تكن تعلم أن هذا المكان عيادة طبيب؟ !

- لا، لم أكن أعلم .

قال الرجل الطويل :

- ومع ذلك ضحكت ساخرًا مني عندما قلت إنني لم أكن أعلم أن هذا المكان عيادة طبيب !

- ضحكتُ فقط، ولكنني لم أسخر منك .

- ولماذا ضحكت؟

- وجدتهم يضحكون فضحكت معهم .

قال الرجل الطويل للرجل الأسمر :

- تبدو عليك الصحة، هل تشكو من أية أمراض؟

- تصلب في الشرايين وصداع مستمر وضعف في الذاكرة، كما أشكو أيضًا من المصران الغليظ والبروستاتا .

قال ذو الأنف المدبب :

- عليك بالثوم. ابتلع فصًا من الثوم كل يوم على الريق. أنا أصبحت في أحسن صحة بفضل الثوم .

قال الرجل الأسمر :

- ولماذا حضرت مادمت في أحسن صحة كما تقول؟

- أخشى من الذبحة الصدرية، أصبت بها مرة وأخشى أن تعاودني .

قال الرجل الأسمر ساخرًا :

- وتقول إنك في أحسن صحة؟

انتابت الرجل ذا الشارب الكث نوبة سعال شديدة فلزم الجميع الصمت حتى انتهت تلك النوبة. نظر إليه الرجل الطويل وقال :
- هل أتيت للعلاج من هذا السعال؟

- لا، السعال لا يضايقني كثيرًا. منذ تسع سنوات عندما كنت في الستين من عمري ...

قاطعه الرجل الطويل قائلًا بدهشة :

- هل يعني هذا أنك الآن في التاسعة والستين من عمرك؟ إنك تبدو أكبر سنًا .

قال ذو الشارب الضخم :

- في الشهر القادم أبلغ السبعين، لقد طحنتني الأحزان .

قال الرجل القصير :

- إذا كان السعال لا يضايقك، فما هو المرض الذي أتيت لتشفى منه؟

- أصبت منذ تسع سنوات بجلطة وينتابني إغماء من آن لآخر ولم تعد لي ذاكرة. أنا لا أذكر ماذا أكلت اليوم .

في هذه اللحظة فتح باب الغرفة المجاورة وأطل منه الرجل المبتسم. أشار نحو الرجل القصير وطلب منه الدخول فدخل الغرفة وأقفل الرجل المبتسم الباب وساد الصمت بضع دقائق، ثم قطعه الرجل الأسمر عندما قال :

- هيا نلعب الكتشينة لنسلي أنفسنا حتى يحين موعدنا. أنا شخصيًا أفضل البقاء في هذه الغرفة .

قال الرجل الطويل :

- ومن أين نحضر الكتشينة؟

قال الرجل الأسمر :

- معي كتشينة أحملها دائمًا في جيبي .

قال ذو الشارب الضخم :

- فكرة جميلة، هيا نلعب .

قال الرجل الطويل :

- من يبدأ اللعب؟

قال ذو الشارب الضخم :

- أكبرنا سنًا .

قال الرجل الأسمر :

- سني خمسة وسبعون عامًا، هل يوجد بينكم من هو أكبر مني سنًا؟

قال الرجل الطويل :

- أنت أكبرنا سنًا، ابدأ اللعب .

بدأوا اللعب، وبعد لحظات فُتح بابُ الغرفة المجاورة وأطل منه وجه الرجل المبتسم وأشار نحو الرجل

الطويل الذي بدت عليه الدهشة ولكنه قام ودخل الغرفة وأقفل الرجل المبتسم بابها .

قال ذو الأنف المدبب :

- كان يدَّعي أنه لا يشكو من الأمراض وأنه لم يكن يعلم أن هذا المكان عيادة طبيب، فلماذا استدعاه الطبيب؟

قال الرجل الأسمر :

- شيء عجيب، والرجل القصير الذي دخل قبله قال أيضًا إنه لم يكن يعلم أن هذا المكان عيادة طبيب ومع ذلك سبقانا في الدخول .

قال ذو الأنف المدبب :

- هيا نستمر في اللعب .

استأنفوا اللعب، وبعد فترة قصيرة دخل طفل في نحو الثامنة يبدو عليه الخجل الشديد والارتباك. سأله الرجل الأسمر :

- ماذا تريد يا بني؟

- أبحث عن جدي .

- جدك؟ ومن هو جدك هذا؟

- رجل قصير سمين .

- عرفته، دخل الغرفة المجاورة ولم يخرج حتى الآن. ولكن قل لي، كيف عرفت أنه هنا؟

- لست أدري !

- اجلس وانتظره حتى يخرج من الغرفة. اجلس هنا، فوق الكرسي الذي كان يجلس عليه جدك .

جلس الطفل على طرف الكرسي وقد احمر وجهه خجلًا، واستأنف الرجال اللعب. قال الرجل الأسمر :

- ما رأيكم لو لعبنا بنقود؟

قال ذو الأنف المدبب :

- لا مانع لدي .

قال ذو الشارب الضخم :

- ولا مانع لدي، على أن تكون المبالغ قليلة إذ لا يوجد معي سوى قدر ضئيل من المال .

قال الرجل الأسمر :

- وهو كذلك. كل واحد يضع جنيهًا، من يكسب يأخذ الجنيهات الثلاثة .

كسب الرجل ذو الشارب الضخم، وعندما همَّ بجمع النقود اعترضه الرجل الأسمر قائلًا :

- رأيتك تغش في اللعب. أنت غشاش .

ثار ذو الشارب الضخم وانتفض واقفًا يشتم ويلعن الرجل الأسمر، ثم تشابكا بالأيدي وبذل ذو الأنف المدبب مجهودًا عنيفًا لفض اشتباكهما. جلس الرجال بعد المعركة في أماكنهم وهم يلهثون. جمع الرجل الأسمر أوراق الكتشينة ووضعها على المنضدة .

فُتح باب الغرفة المجاورة وأطل منه وجه الرجل المبتسم وأشار للطفل. انطلق الطفل بأقصى سرعته نحو الرجل المبتسم واندفع داخل الغرفة المجاورة وكأنه يلوذ بمكان آمن هاربًا من العنف والقتال الذي أفزعه .

لزم الرجال الثلاثة الصمت بضع لحظات. قطع ذو الشارب الضخم الصمت عندما قال :

- أين يذهب الذين يدخلون هذه الغرفة؟ إنهم يدخلون ولا يخرجون !

قال ذو الأنف المدبب :

- لابد أن يكون للغرفة باب آخر للخروج .

قال الرجل الأسمر :

- وإلى أين يقود هذا الباب الآخر؟ إن للمبنى سلمًا واحدًا هو الذي صعدنا فوقه لنصل إلى هذه الغرفة ولا يوجد

أي منفذ آخر. أنا لن أمكث هنا. هيا نغادر هذا المكان .

فُتح باب الغرفة وأشار الرجل المبتسم للرجل الأسمر داعيًا إياه لدخول الغرفة فدخل. لم يبق في غرفة الانتظار سوى الرجل ذي الشارب الضخم والرجل ذي الأنف المدبب .

قال ذو الأنف المدبب :

- لابد من الاستمرار في اللعب حتى لا نمل الانتظار .

قال ذو الشارب الكثيف :

- لن ألعب بفلوس .

- يستحسن ذلك، لا داعي للعب بفلوس، إنها أصل كل الشرور .

استمر الاثنان يلعبان. كان ذو الشارب الضخم يكسب دائمًا. بدأ ذو الأنف المدبب يفقد أعصابه فصاح قائلًا :

- ما هذا؟ لماذا تكسب أنت طوال الوقت ولا أكسب أنا ولو مرة واحدة؟

- مسألة حظ .

قال ذو الأنف المدبب بصوت متهدج :

- حظي تعس طوال حياتي. لم أشعر في حياتي بلحظة راحة أو لحظة سرور. تعبت كثيرًا .

وبدأ يجهش بالبكاء قائلًا :

- أنا تعبت، تعبت .

فُتح باب الغرفة المجاورة وأشار نحوه الرجل المبتسم فاتجه ذو الأنف المدبب نحو الغرفة وهو يجفف دموعه، وقبل دخوله من باب الغرفة التفت إلى ذي الشارب الكثيف الجالس بمفرده وقال :

- واصل اللعب، العب مع نفسك، لن تجد من تغلبه .

دخل الغرفة المجاورة وأقفل الباب، وجلس ذو الشارب الضخم وحيدًا يسلي نفسه برص أوراق الكتشينة وأخذ يرتبها ويعبث بها، ثم أخذ يرصها من جديد لمعرفة طالعه. أطل من باب الغرفة المجاورة ذو الوجه المبتسم وأشار إليه فهرول نحو الغرفة .

عام 1978

البيت

منذ أجيال عديدة موغلة في القِدَم، عندما بُنِيَتْ هذه الفيلا، كانت أجمل ما رأته العين في هذا المكان بطرازها المعماري المتميز الذي لم يكن له نظير وموقعها الفريد المطل على البحر إلى ما وراء الأفق، ولقد ظلت صامدة تتحدى مرور الزمن فتبدو وكأنها تزداد حسنًا مع مرور الأيام .

فيما مضى، كانت الحركة فيها لا تهدأ، تقام فيها الحفلات الساهرة والمآدب الفاخرة وتتلألأ بالأنوار المبهرة. ولطالما استقبلت شخصيات عالمية مرموقة من عظماء التاريخ، ففي الصالون لوحة رائعة تمثل نابليون بونابرت جالسًا في إحدى غرف البيت مرتديًا عباءة وواضعًا على رأسه عمامة ضخمة تشبه تلك التي على رأس مضيفه الجالس بجواره في الصورة .

أما الآن، فلم تعد الفيلا تضم سوى الدكتور عبد الرحيم الذي انتقل إليها منذ بضع سنوات، بعد أن كان يعيش في شقة بمنطقة سيدي بشر هو وزوجته وابنته الوحيدة عندما اكتشف أنه قد أصبح الوارث الوحيد لعائلة البردويلي. كانت هذه الفيلا هي كل ما تبقى من أملاك تلك العائلة، وتحتوي على عشر غرف عدا ثلاث أخرى للخدم الذين لم يعد لهم الآن وجود في الفيلا، تلتف حولها حديقة واسعة بها نخيل وأعناب وبرتقال

ويوسفي ورمان وموز وجوافة وورد وفل وياسمين وغيرها .

كان يحلو له الجلوس تحت شجرة برتقال يحتسي قهوة الصباح التي يصنعها بنفسه، ويأكل بعض الثمار التي تمتلئ بها الحديقة. وبعد تناول القهوة والفاكهة وبيضتين مقليتين، اعتاد أن يصعد السلم الرخامي الخارجي، ثم السلم الخشبي الداخلي المؤدي إلى الدور العلوي ويدخل غرفة فسيحة يسميها «الصومعة» جميع جدرانها متوارية خلف صفوف من الكتب، وبها مكتب أنيق ذو طراز فريد لا مثيل له .

منذ إحالته إلى التقاعد، بعد أن كان رئيسًا لقسم التاريخ بالجامعة، لم يكن يمر يوم دون أن يجلس في هذه الغرفة يقرأ كتب التاريخ ويؤلف كتبًا جديدة ويدوِّن ذكرياته متضمنة جميع الأحداث التي مرت به .

كان شديد الحنين لبيته، إذا خرج منه لأمر من الأمور فسرعان ما يعود إليه وفي أعماقه شوق كشوق السمكة إلى الماء، معتزًا بحديقته، يتولى بنفسه أمر فلاحتها والعناية بها، ولذا فلقد شعر بالألم عندما لاحظ ذبول إحدى أشجار الموز. هرُع إلى صديق يلتمس منه المشورة، فقال له صديقه إنه سيرسل إليه بستانيًا خبيرًا بزراعة الموز لمعرفة سبب هذه الكارثة .

قال البستاني بعد أن فحص الشجرة والتربة :

- يبدو أن لعنةً حلّت على هذه الحديقة !

قال عبد الرحيم بدهشة وفزع :

- لعنة؟! أنا لم أرتكب ذنبًا فلماذا تحل اللعنة على حديقتي؟

- لست أدري .

- وما العمل؟

- عندما يصيبنا ما لا يدَ لنا فيه ولا قدرة لنا على منعه فإننا نسلم أمرنا لله .

- هل معنى هذا أن جميع أشجار الحديقة سوف تذبل؟

- يخيل إليّ ذلك .

في خلال أقل من شهر تحولت الحديقة إلى خرابة وأصبحت الأشجار كأوتاد جرداء لا تحمل أي ورقة خضراء. بعد فترة قصيرة تكيف الرجل مع هذا الوضع الجديد ورضي بالأمر الواقع وأصبح يجلس في هذه الخرابة بالقرب من جذع شجرة البرتقال الميتة يحتسي فنجان قهوة الصباح ثم يلوذ بغرفة المكتبة؛ حيث ينغمس في القراءة والكتابة ليذيب فيها أحزانه، ومن آن لآخر كانت تطفر من عينه دمعة .

كان من عادته عندما ينتهي من الكتابة والقراءة في المساء، الجلوس في الشرفة الملحقة بغرفة المكتب ناظرًا إلى المنار القائم بالقرب من شاطئ البحر ملاحظًا ومضات الضوء التي تنطلق منه ولا يمل النظر إلى هذه الأشعة التي تلمع في الظلام وكثيرًا ما كان يكتشف أنه ظَل ناظرًا إليها أكثر من ثلاث ساعات متوالية دون أن يدرك مرور الزمن. ذات مساء، بعد أن انتهى من القراءة والكتابة جلس في الشرفة ناظرًا إلى المنار منتظرًا ومضات الضوء ولكنها لم تومض .

ماذا حدث؟! هذه أول مرة ألاحظ فيها انطفاء هذا الضوء. كيف تهتدي السفن إلى الميناء بدونه؟! هل ستظل تائهة تجوب البحار السبعة منتظرة تلك الإشارة الضوئية؟ !

في صباح اليوم التالي تناول فنجان القهوة في الخرابة التي كانت حديقة .

شعر باكتئاب ففكر في الخروج من البيت والجولان في الشوارع في محاولة لتخفيف حدة ذلك الاكتئاب، ولكنه ازداد حزنًا عندما رأى البيوت تحيط بها حدائق جميلة .

لماذا تختفي حديقتي وتزدهر حدائق الآخرين؟! لقد عهدت الخصوبة في تربة حديقتي فماذا جرى لها؟! لماذا اختفت منها الثمار والأشجار التي ظلت مزدهرة على مدى أجيال عديدة؟ !

عاد إلى البيت على غير اشتياق فلقد خبا حنينه القديم إليه. فتح باب الحديقة واجتاز الخرابة بخطى بطيئة وكأنه يحمل على كتفيه هرمًا من الأحزان واتجه نحو غرفة نومه. خلع ملابسه واستلقى على الفراش، لم يشعر بالراحة ولكنه شعر بالجوع، ففكر في أن يقلي بيضتين، ولكنه لم يجد بيضًا في الثلاجة فهبط السلم وذهب إلى الجهة الخلفية ليحضر بيضتين من حظيرة الدجاج. وقف مشدوهًا لا يصدق عينيه عندما لم يجد للحظيرة أثرًا !

لقد استوردتُ أجود أنواع الدجاج واعتنيت بتربيته في هذه الحظيرة الفاخرة، وكان حجم البيضة ضعف حجم أية بيضة من المطروح في الأسواق، هل من المعقول أن تُسرق الحظيرة بما فيها من بيض ودجاج؟ شيء لم أر له مثيلًا. لابد من إبلاغ البوليس .

- اللصوص سرقوا حظيرة دجاجي .

قال رجل البوليس بدهشة .

- سرقوا الحظيرة؟ كيف؟ !

- لست أدري. ذهبت الآن لأحضر بيضتين فلم أجد شيئًا، لا الدجاج ولا البيض ولا الحظيرة .

قهقه رجل البوليس وقال بعد أن هدأت موجة الضحك التي اجتاحته :

- لم تجد لا الحظيرة ولا الدجاج ولا البيض؟ وإذا استطاع اللصوص سرقة الدجاج والبيض فكيف تمكن أولاد الأبالسة من سرقة الحظيرة؟

وعاد يقهقه من جديد. قال عبد الرحيم :

- لست أدري، ولكن هذا هو الذي حدث .

تلاشت ثنيات الضحك من وجه رجل البوليس وقطّب حاجبيه ونظر إلى عبد الرحيم نظرة قاسية وقال بسخرية مريرة :

- وماذا تريد مني؟ هل أطلق العساكر للبحث عن لصوص سرقوا حظيرة دجاج؟

- أليست هذه مهمة رجال البوليس؟

- لا يا سيدي، ليس هذا اختصاص رجال البوليس ولا شأن لنا به، إنه من اختصاص وزير التموين .

ذهب إلى وزارة التموين وبحث عن الموظف المختص بتلقي مثل هذه الشكاوى. قال للموظف :

- اكتشفت سرقة حظيرة دجاجي بكل ما فيها من دجاج وبيض .

ضحك الموظف وقال :

- وماذا تريدني أن أفعل؟ !

- البحث عن السارق وإحضار المسروقات .

- أنا أبحث لك عن مسروقاتك؟! ولماذا لا تبحث عنها بنفسك؟! هل هي مسروقاتي أو مسروقاتك؟ !

- عندما شكوت للبوليس قيل لي إن الأمر من اختصاص وزارة التموين .

- ليس هذا من اختصاصنا .

- ومن المختص بمثل هذه الأشياء؟

- لست أدري .

- يبدو أنها ليست من اختصاص أحد، وما دام الأمر كذلك فسأعود إلى بيتي .

استلقى على ظهره في الفراش وحاصرته الأفكار .

ترى أين أنت الآن يا حظيرتي وأين أنت يا دجاجي يا مليح الصفات يا عريق السلالة، يا من كنت تغنيني عن شراء اللحم وتقدم لي البيض الممتاز كل صباح ومساء؟ ولكن لا داعي للحزن، إذ ليس من المعقول أن أنكد على نفسي بسبب حظيرة دجاج. من الممكن الاستغناء عن الدجاج والبيض كما استغنيت عن الحديقة. ملايين الناس يعيشون سعداء بلا دجاج أو بيض. يقولون إن

البيض يزيد نسبة الكولسترول في الدم، والكولسترول يسبب تصلب الشرايين. قد يكون اختفاء البيض مفيدًا لصحتي، من يدري؟ كنت أُحبه مسلوقًا ومقليًا. البيض المقلي ألذ طعام في الدنيا، سوف يستمتع به سارق الحظيرة، ولكنه سيزيد الكولسترول في دمه، من الأفضل عدم تناول البيض بعد سن الستين. رب ضارة نافعة.. لكنني كنت أحبه .

في هذه الأثناء كان ناظرًا نحو سقف الغرفة متأملًا النقوش الجميلة التي لم نعد نرى مثلها الآن في أسقف المنازل الحديثة. شعر ببعض الانتعاش وهو يتأمل هذه الزخارف البارزة وكاد ينسى أحزانه، ولكنه فزع عندما رأى بقعة كبيرة في أعلى الجدار بالقرب من السقف تدل على وجود ماء متسرب إلى هذا المكان .

من أين نفذ هذا الماء؟ إنني لم أره من قبل .

انتفض واقفًا وهرول نحو الحمام الملاصق لغرفة النوم فوجد بقعة مماثلة في الجدار الفاصل بين الاثنين .

لابد أن الماء نفذ من ثقب في الماسورة التي في الجدار، وهذا يعني ضرورة تركيب ماسورة جديدة، وسوف يقتضي ذلك هدم هذا الجزء من الجدار وإعادة بنائه. مشكلة لم تكن في الحسبان. ولكن لا داعي للحزن، فهذه أشياء تحدث في جميع البيوت. من الممكن نقل غرفة نومي إلى غرفة أخرى .

أخذ يجول في أنحاء البيت باحثًا عن غرفة أخرى تصلح للنوم. وقع اختياره على غرفة أنيقة مُبَطَنة بالخشب الثمين لا يوجد بها من الأثاث سوى منضدة مستديرة مطعمة بالصدف عليها صندوق خشبي مطعم بالصدف بداخله شطرنج، وعلى جانبي المنضدة كرسيان من الطراز نفسه .

غدًا أضع هذه الأشياء في غرفة أخرى وأنقل غرفة نومي هنا، إنها أجمل من الغرفة التي أنام فيها. كانت تحبها زوجتي وتفضلها على جميع غرف البيت. طالما جلسنا فيها ولعبنا معًا الشطرنج .

في المساء جلس في غرفة المكتبة وظل يقرأ نحو ساعتين، ثم كتب نحو عشر صفحات من كتاب التاريخ الذي يواصل كتابته منذ نحو ثلاثة أعوام. بعد ذلك خرج إلى الشرفة وجلس على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه في ركن الشرفة ونظر نحو البحر وتعجب عندما رأى المنار مازال متوقفًا عن العمل، فقام وآوى إلى فراشه متجنبًا النظر إلى بقعة الماء التي لاحظ عند دخوله الغرفة أنها اتسعت فأصبحت تشغل نحو ربع مساحة الجدار. انتزع نفسه من التفكير في بقعة الماء وحظيرة الدجاج وأطفأ النور ونام .

في الصباح لاحظ أن بقعة الماء ازدادت مساحتها حتى أصبحت تشغل أكثر من نصف الجدار .

ينبغي الإسراع بنقل الأثاث إلى غرفة النوم الجديدة، أبدأ بنقل السرير فهو أهم ما في الغرفة .

انتهى من فك أجزاء السرير، فأخذ ما أمكنه حمله منها واتجه بها نحو الغرفة الجديدة، ولكنه لم يجدها.. لقد اختفت الغرفة بأكملها من البيت. وقف مذهولًا لا يصدق عينيه. أخذ يعد غرف المنزل فوجدها تنقص غرفة ..

هذا شيء غير معقول. إذا كان من الممكن أن تسرق حظيرة دجاجي فكيف تختفي غرفة من غرف منزلي وتصبح كأن لم تكن؟ !

كانت الغرفة تقع في ركن من أركان البيت فوق غرفة الصالون، فوجد مكانها خاليًا ولم يبق من جدرانها سوى الجدار الذي كان يفصلها عن الغرفة المجاورة وبدت غرفة الصالون ولا شيء فوقها. فكر في الذهاب إلى البوليس للإبلاغ عن اختفاء تلك الغرفة .

ماذا أقول للبوليس؟ هل أقول إن اللصوص سرقوا غرفتي بأثاثها وجدرانها وأصبح مكانها خاليًا؟ لن يصدقني أحد سيعتقدون أنني فقدت عقلي. هل أطلب منهم الحضور لمعاينة البيت للتأكد من صدق ما أقول؟ ولكن هل أنجح في إقناعهم بأن البيت لم يكن بهذا الشكل منذ البداية؟ من الأفضل الصمت إذ لا فائدة من الشكوى .

شعر بحزن يملأ صدره كبخار مضغوط لا يخرجه سوى البكاء، فوجد نفسه يبكي، وأرجأ التفكير في غرفة النوم إلى الغد .

عندما انتهى من القراءة والكتابة في هذا المساء الحزين، جلس كعادته في شرفة غرفة المكتبة، وعلى الرغم من عدم وجود أي أثر لضوء المنار فلقد ظل ناظرًا إليه متوقعًا استئناف إشعاعه في أية لحظة، ولكنه ظل بلا ضوء. قام وأحضر منظارًا تلسكوبيًا وأخذ يفحص المنار فاكتشف وجود ضوء خافت لا يكاد يُرى لأنه محجوب بطلاء أصفر .

ما الحكمة في ذلك؟ لماذا يحجبون الضوء؟ وإذا كانوا يحجبون الضوء فلماذا لم يطفئوا المصباح؟ ما هذه الأشياء التي تحيرني؟

بعد نوم مليء بالكوابيس المفزعة صحا في اليوم التالي مرعوبًا عندما شعر بالماء يسقط فوق رأسه مندفعًا من جدار غرفة نومه، فأسرع إلى مخزن بالبدروم وأحضر بعض الأسمنت وأقفل الثقب المتدفق منه الماء وقرر نقل أثاث الغرفة على الفور إلى أي مكان آخر. في أثناء بحثه عن غرفة مناسبة ينتقل إليها لاحظ اختفاء غرفة الصالون الواقعة تحت الغرفة التي اختفت بالأمس، فأصبح مكانها خاليًا. شعر بضغط الدم داخل رأسه .

كيف اختفت تلك الغرفة هي الأخرى؟ من غير المعقول أن تكون عمليتا الهدم والإزالة قد تمتا في أثناء نومي. سأفتقد الصور الثمينة التي كانت تزيّن جدرانها، وعلى الأخص صورتي المرحومتين العزيزتين زوجتي وابنتي. كنت أحب رؤية صورتيهما كل يوم فأشعر وكأنهما معي في البيت. سيزداد شعوري بالوحدة والحزن .

حان موعد تناول قهوته، فذهب إلى المطبخ لعمل فنجان الصباح، ولكنه لم يستطع عمل فنجان القهوة لأنه لم يجد المطبخ ووجد في مكانه عددًا هائلًا من الفئران الضخمة، ما كاد يقترب منها حتى أسرعت بالاختفاء في جحر مظلم وتوارت في الظلام .

كلُّه إلا هذا، إذا أمكنني الاستغناء عن الغرفتين المختفيتين فكيف أستغنى عن المطبخ؟ أين أطهو طعامي وأعمل فنجان قهوتي؟ ما هذه الفئران التي غزت البيت ولم يكن لي عهد بها من قبل؟ إن خوفي من الفئران أشد من خوفي من الشيطان. لو رأيت فأرًا منها في غرفة نومي فلن يغمض لي جفن، وعلاوة على ذلك فهي حيوانات خطيرة، إنها تنقل الطاعون. لم أعد أشعر بمزيد من الحزن فلقد فاض به قلبي ولم يعد به مكان لحزن جديد .

تذكر قصة كانت قد حكتها له زوجته :

«ذهب رجل إلى أحد المنجمين ليقرأ الطالع، وبعد أن فحص كفه قال: سيكون النصف الأول من حياتك محزنًا للغاية، فقال الرجل بلهفة: والنصف الثاني؟ قال المنجم: ستكون قد ألفت الحزن وتكيفت معه ».

وقع اختياره على غرفة أخرى للنوم. أتم نقل الأثاث وفرش السرير. شعر بتعب في العمود الفقري بسبب المجهود العنيف الذي بذله في نقل أثاث الغرفة بمفرده فاستلقى على السرير ليريح ظهره. تذكر أنه نسى صورة على جدار غرفة النوم التي تركها، فنهض وذهب لإحضارها لتعليقها على جدار الغرفة التي انتقل إليها، ولكنه عندما وصل إلى مكان الغرفة التي انتقل منها لم يجد لها أثرًا. لقد اختفت هي والحمام المجاور لها. عاد إلى غرفة النوم الجديدة وقد بدت خافتة الضوء وهي مقفولة النافذة ومسدلة الستائر. جلس على الكرسي الوحيد الذي بالغرفة يفكر في هذه الأحداث العجيبة. قطع سلسلة أفكاره شيء لفت نظره. على جدار الغرفة. رأى سربًا من الحشرات متجهًا من خلف السرير نحو سقف الغرفة. اقترب منها يفحصها بعينيه، وعندما عرفها أسرعت دقات قلبه هلعًا .

إنني أعرفها. إنها تلك الحشرات المدمّرة التي يسمونها «النمل الأبيض» قرأت عنها في إحدى المجلات. إنها تتغذى على الأخشاب وفي مقدورها أن تلتهم في ليلة واحدة أثاث غرفة بأكملها، فهل تكون هي المسؤولة عن

اختفاء الحجرات؟ لا، هذا مستحيل إذ إنها لو التهمت الأخشاب فلن تستطيع التهام الجدران فهي لا تتغذى على الأحجار. من أين جاءت هذه الحشرات اللعينة؟

زحف تحت السرير ليرى مصدرها فوجد ثقبًا في خشب الغرفة جنب الجدار تنساب منه هذه الحشرات وكأنها نافورة، ثم رأى منظرًا عجيبًا. وجدها تطير وتملأ الغرفة، وبعد فترة وجيزة أخذت تفقد أجنحتها وتتساقط حتى ماتت عن آخرها ولم يعد لها أثر في الغرفة .

أحمد الله على زوال تلك الحشرات الكريهة. ولكن من يدريني؟ ربما يكون هناك آلاف غيرها مازالت قابعة في السرداب الذي خرجت منه. أعتقد أن موتها هذا خدعة لكي أتهاون في القضاء عليها في أوكارها لتعود للظهور في أي وقت تشاء وتعيث فسادًا في البيت. تكون كارثة لا يمكنني احتمالها لو وصلت إلى غرفة المكتبة فهي أهم وأعز غرفة لديّ. لا يمكنني الاستغناء عنها أو تعويضها .

كانت أكبر صدمة تلقاها منذ بدأت هذه الأحداث، عندما ذهب في صباح اليوم التالي كالمعتاد للقراءة والكتابة فلم يجد غرفة المكتب. شعر بدوار فأسرع إلى غرفة النوم واستلقى على الفراش، أحس بضيق في التنفس فقام وفتح نافذة الغرفة لتجديد الهواء وعاد إلى الفراش. بعد فترة بدأ تنفسه يعود إلى حالته الطبيعية. حانت منه التفاتة نحو النافذة فرأى شيئًا لم يره من

قبل. على بعد بضعة أمتار من البيت كان يوجد كوخ يعيش فيه رجل غامض مجهول الهُوِيَّة. منذ أيام قلائل كان الكوخ في هذا المكان كما اعتاد أن يراه منذ أعوام، جدرانه من الصفيح وأمامه معزة عجفاء مربوطة بحبل في وتد. ولكنه عندما نظر الآن وجد الكوخ قد اختفى وحل محله مبنى من طابقين .

قام وأحضر المنظار التلسكوبي ونظر من خلاله إلى ذلك المبنى الجديد فوجد أحجار البناء والنوافذ صورة طبق الأصل من أحجار ونوافذ منزله. كانت جميع النوافذ مفتوحة، صوّب نحوها منظاره. من خلال إحداها رأى غرفة مكتبه التي اختفت. المكتب الذي فيها هو مكتبه والمصباح الذي فوقه مصباحه، فهما من طراز فريد لا يتكرر كما رأى خزائن الكتب تبطن جدران الغرفة، ولكن الكتب اختفت وحل محلها علب من الصفيح كبيرة الحجم، وأكياس صغيرة لا يدري ما بداخلها، وعدد كبير من الأحذية مرصوصة بجوار بعضها، وأشياء أخرى لا يعرف كنهها إذ لم يستطع كشف ملامحها، ثم رأى عملاقًا طويلًا عريضًا دخل تلك الغرفة وأخذ حذاءً من خزانة الكتب. إنه الرجل نفسه الذي طالما رآه منذ أيام يدخل الكوخ ويخرج منه ويقدم الطعام لمعزته .

أخيرًا وجدته، ها هو ذا اللص الذي سرق غرف منزلي وسرق مكتبتي التي حولها إلى مخزن للأحذية والعلب الصفيح. ولكن ماذا أفعل؟ كيف أسترد حجرات منزلي؟

أنا لم يعد يهمني سوى كتبي وغرفة المكتبة. أين ذهبت الكتب التي لا أرى لها أثرًا؟

صمم على الذهاب إلى ذلك الرجل والتفاهم معه. لاحظ وهو يضغط على زر جرس الباب وجود حظيرة دجاج بالقرب من المنزل تشبه حظيرته المختفية تمام الشبه. فتح الباب خادم يرتدي زيًا مزينًا بزخارف ذهبية اللون. قال له الدكتور عبد الرحيم :

- أريد مقابلة ساكن هذا البيت .

- وماذا تريد منه؟

- مسألة خاصة أود الاستفسار عنها .

- تفضل .

دخل وكأنه يدخل منزله بجميع تفاصيله المعمارية. قاده الخادم إلى غرفة فاخرة اكتشف عبد الرحيم أنها غرفة صالونه التي اختفت. لاحظ وجود صورتي زوجته وابنته معلقتين على الحائط. قام وأخذ الصورتين ووضعهما تحت إبطه وجلس. طال انتظاره لساكن المنزل فقام وأطل من باب غرفة الجلوس فرأى بابًا مفتوحًا. مد بصره داخل هذه الغرفة فوجدها غرفة مكتبته كما رآها من خلال المنظار. رأى صاحب البيت قادمًا فأسرع بالجلوس في المكان الذي كان جالسًا فيه. دخل ساكن البيت بقامته الفارهة وعضلاته الشبيهة

بعضلات أبطال كمال الأجسام مرتديًا قميصًا أبيض بدون رباط عنق وسروالًا ذا حزام عريض منخفض يكاد يكون فوق العانة. وقف عبد الرحيم ومد يده ليصافحه ولكن ساكن المنزل لم يمد له يده وجلس على كرسي مقابل، فجلس عبد الرحيم وسادت فترة صمت .

إنه هو الشخص نفسه الذي كان يسكن الكوخ ويطعم معزته. كنت أراه دائمًا ممزق الثياب، قذر الوجه، أشعث الشعر، نحيل الجسم، مصفر اللون، ما الذي غيَّره هكذا؟

أخيرًا نظر ساكن البيت إلى الأستاذ عبد الرحيم وقال :

- خيرًا، علمت أنك حضرت للاستفسار عن مسألة خاصة، ما هي يا ترى هذه المسألة الخاصة؟

أطرق الدكتور عبد الرحيم فترة قصيرة مفكرًا فيما ينبغي أن يبدأ به حديثه ثم قال :

- من أين حصلت على هذه الغرفة التي نحن جالسون فيها؟

نظر إليه ساكن البيت نظرة استنكار واحتقار ثم قال :

- تتهجم عليَّ في بيتي وتزعجني وتقلق راحتي لتسألني من أين حصلتُ على هذه الغرفة؟ وما شأنك أنت بذلك؟ هل حضرت للتحقيق معي؟ وما هذا الذي تحت إبطك؟

- إنهما صورتا زوجتي وابنتي، وهذا يثبت أن الغرفة غرفتي .

- بل يثبت أنك لص فاجر. سمحتُ لك بدخول بيتي، وفي دقائق قليلة استوليت على بعض الصور التي أزّين بها جدران الصالون ووضعتها تحت إبطك .

- هل من المعقول أن تزين غرفة صالونك بصورتي زوجتي وابنتي؟! إن هذه الغرفة بكل ما فيها غرفتي، والإنسان يعلق في منزله صورة زوجته وابنته هو لا صورة زوجات وبنات الآخرين .

- ألم يخطر ببالك أنني ربما أكون قد اشتريت الصورتين من مزاد علني؟

- هاتان الصورتان كانتا في بيتي منذ يومين ولم يعرضا في أي مزاد علني أو غير علني. هل اشتريت هذا الأثاث أيضًا من مزاد علني؟

- لا بل اشتريته جديدًا من أحد متاجر الأثاث الكبرى .

- إنه أثاث غرفتي، وها هي ذي بقعة حبر كانت على هذا الكرسي. كما لاحظت وجود غرفة مكتبي التي اختفت. إن باقي الغرف والحمام والمطبخ التي اختفت من بيتي قد انتقلت هي أيضًا إلى بيتك، فهل تسمح لي برؤية هذه الأشياء؟ لا أطلب منك سوى مجرد رؤيتها .

نظر إليه ساكن البيت نظرة فيها قسوة وتحد وقال :

- هل تريد أن تراها؟

- أجل .

- هَيَّا معي .

قاده ساكن البيت إلى غرفة المكتبة، ثم إلى باقي الغرف التي اختفت ثم إلى المطبخ والحمام، فتأكد عبد الرحيم من أنها غرف ومرافق منزله .

قال لساكن البيت :

إنها غرف منزلي، ولقد رأيت أيضًا حظيرة دجاجي بجوار منزلك .

قال ساكن البيت بسخرية :

- ألا تريد رؤية حظيرة الدجاج أيضًا؟

- أريد أن أراها فلقد اشتقت إليها .

- هيَّا معي .

خرجا من البيت، وفي مثل لمح البصر اختطف ساكن البيت الصورتين من تحت إبط عبد الرحيم، ونفخ في صفارة كانت في يده فتجمع فجأة من أماكن مختلفة عددٌ من الكلاب الضخمة الشرسة، واتجهت تعدو نحو

عبد الرحيم نابحة نباحًا مرعبًا فجرى بأقصى سرعته عائدًا إلى بيته وسمع ساكن البيت يقهقه بصوت يشبه صوت المارد الذي ينطلق من القمقم في بعض قصص «ألف ليلة وليلة ».

عندما دخل من باب الخرابة التي كانت حديقة وجد في انتظاره مفاجأة أخرى مروعة كادت تطيح بعقله. لقد اختفى بيته ولم يبق منه سوى غرفة نومه التي أصبحت فوق أرض الخرابة بعد أن كانت في الدور العلوي .

استلقى على السرير في تلك الغرفة التي لم يبق له سواها ونظر من نافذتها فرأى المبنى الذي حل محل الكوخ قد أصبح وكأنه نسخة من بيته الذي كان! انتفض واقفًا وفكر في الذهاب إلى ذلك البيت عسى أن يسمح له صاحبه أن يمنحه غرفة فيه. سار بضع خطوات متجهًا إليه فرأى الكلاب تنطلق نحوه نابحة، فهرول مسرعًا عائدًا إلى غرفة نومه وهو يلهث من فرط الإعياء .

هاله أن رأى تلك الغرفة انكمش حجمها إلى نحو نصف الحجم الأصلي. فتح بابها فوجد جميع محتوياتها قد اختفت فيما عدا سرير ضيق. شعر بضغط شديد على جسده من جميع الجهات، وظل الضغط يزداد باطراد .

في الصباح صحا من نومه فلم يجد السرير ووجد نفسه واقفًا في ظلام تام بين أربعة جدران في حيز لا يتسع إلا لجسده والسقف يلمس رأسه. لم يشعر بأية دهشة أو أي حزن، ولم يدرك ما إذا كان بالليل أم بالنهار وحدَّث نفسه قائلًا :

- شيء عجيب، هل أصبحوا يدفنون الموتى وهم واقفون؟ !

عام 1984

البحث عن حلم

على الجدران صور ملائكة وشياطين ونساء ورجال يطيرون في الهواء ويسبحون في الماء. تتناثر في أنحاء الغرفة عدد من الحشايا يجلس عليها رجال ونساء وفتيات ينتظرون دورهم لدخول الغرفة المجاورة للقاء «شملاط» الذي اشتهر بقدرته على جعل أي شخص يرى في منامه الحلم الذي يتمنى رؤيته. كان الجالسون خمسة: فتاة في نحو العشرين ورجلًا في نحو الخمسين وآخر في نحو الستين وشابًا في الخامسة والثلاثين وآخر في نحو الثلاثين، هو سمير بسيوني .

دخل الجميع غرفة شملاط، واحدًا بعد الآخر ولم يبق سوى سمير الذي طال انتظاره، وبعد خروج من كان مع شملاط سمع سمير صوتًا منبعثًا من الغرفة المجاورة، وكأنه قادم من أعماق الفضاء، يستدعيه للدخول فدخل. طلب منه شملاط أن يغلق الباب فأغلقه .

كان شملاط متربعًا على دكة مرتفعة مرتديًا عباءة حمراء من الصوف وعلى رأسه عمامة خضراء ضخمة وتتدلى من عنقه مسبحة طويلة .

الغرفة تكاد تكون جرداء، لا يوجد بها سوى دكة شملاط أمامها حشية بالقرب منها منضدة صغيرة منخفضة،

وفي وسط الحجرة موقد من الفخار يتصاعد منه بخور ذو رائحة غريبة نفاذة ولكنها زكية يرتاح لها الأنف. قال شملاط :

- ضع عشرة قروش على المنضدة .

وضع سمير المبلغ المطلوب. قال شملاط :

- ما هو الحلم الذي تود رؤيته في منامك الليلة؟

- أريد أن أرى والدي .

قال شملاط بدهشة :

- تريد رؤية أبيك في المنام؟ شيء عجيب !

- وما وجه العجب في ذلك؟

- أنت أول شخص يطلب مني هذا الطلب. فمعظم الذين أراهم هنا يطلبون أحلامًا أخرى، منهم من يطلب أن يرى نفسه في المنام يأكل بضع تفاحات أو قطعة لحم، ومنهم من يتمنى أن يضاجع زوجته في المنام .

قال سمير متعجبًا :

- يتمنى مضاجعة زوجته في المنام؟

- أجل، زوجته التي عقد قرانه عليها منذ أكثر من عشرة أعوام .

- ولماذا لا يضاجعها في اليقظة؟

- لا تتاح له فرصة مضاجعتها في اليقظة لعدم تمكنه من الحصول على شقة تؤويهما، وفتيات يردن أن يحلمن أنهن بين أحضان شاب وسيم، وغيرها من الطلبات. ولكن لماذا تريد رؤية والدك في الحلم؟

- كنت في الخارج في بعثة دراسية، وبعد ثلاثة أعوام من الغربة والحصول على الدرجة العلمية، وصلتني برقية بأنه مريض وحالته خطرة، فأسرعتُ بالعودة لرؤيته، ولكن لسوء حظي علمت أنه توفي قبل مجيئي بيوم واحد فلم أستطع رؤيته، ولذا أود أن أراه في المنام .

أطرق شملاط إلى الأرض فترة من الزمن يغمغم بكلام غير مفهوم ثم نظر إلى سمير وقال :

- هل معك صورة لوالدك؟

- أجل .

- أخرج الصورة .

أخرج سمير الصورة من محفظته وهمَّ بإعطائها لشملاط ولكنه لم يمد يده ليأخذها وقال :

- اجلس صامتًا ناظرًا إلى صورة أبيك وركز التفكير فيه محاولًا تذكر آخر مرة رأيته فيها وآخر كلمات سمعتها

منه .

حافظ على نفسك يا سمير. لا تنس شراء ملابس كافية للوقاية من البرد يجب أن تتغذى جيدًا فالبرد مع الجوع في منتهى الخطورة .

ماتت الروائية اميلي برونتي وجميع أخواتها بالسل. كيتس، الشاعر الرقيق مات بالسل.المؤلف سمرست موم مرض بالسل وقضى فترة في إحدى المصحات. في الولايات المتحدة يمرض شخص بالسل كل سبع دقائق. البرد موجود أيضًا في مصر. كانت أسناني تصطك من البرد وأنا ذاهب إلى المدرسة في الطريق الزراعي في الشتاء. إنهم يموتون هنا أيضًا بالسل .

لا تنس لبس الملابس الصوف ولا تستهن بالبرد. احترس من الفتيات واهتم بدراستك .

أخرجه من الاسترسال في أفكاره صوت شملاط يقول :

- هل انتهيت من التركيز والتذكر؟

- أجل .

قام شملاط ووضع يده على رأس سمير متمتمًا بكلمات غامضة ثم قال :

- قم وسترى والدك الليلة في الحلم. حاول أن تكون نائمًا قبل منتصف الليل ولا تستخدم الحبوب المنومة .

شعر سمير برغبة في النوم. عقب الغداء ولكنه قاومه حتى لا يتأخر في النوم عن الموعد المحدد. في نحو الحادية عشرة بحث عن كتاب؛ تساعد قراءته على النوم ووقع اختياره على كتاب تفسير الأحلام لفرويد .

أضاء الأباجورة التي على الكُمُدينو جنب السرير وأخذ يقرأ بعض صفحات الكتاب الضخم متهيئًا للنوم. بعد فترة وجيزة رأى نفسه في حفل بمنزل لم تسبق له رؤيته. الحفل في بهو واسع به فرقة موسيقية تعزف موسيقى روميو وجوليت لتشايكوفسكي، يموج المكان بالرجال والنساء والشبان والفتيات، لا يدري مناسبة الحفل ولا يعرف وجهًا واحدًا من الوجوه التي حوله. سار بينهم غريبًا لا يعرفه أحد ولا يعيره أيّ اهتمام. رأى رجلًا نحيلًا طويلًا يحمل صينية عليها أكواب لا يعرف ما فيها. أخذ الرجل يوزع الأكواب على جميع الموجودين بالمكان. تألم عندما وجد نفسه الشخص الوحيد الذي لم يقدم له الرجل أحد الأكواب. شعر بظمأ فقال للرجل :

- أنا عطشان، أريد أن أشرب .

نظر إليه الرجل نظرة فيها قسوة وأسرع بالابتعاد عنه. رأى فتاة رائعة الجمال قادمة نحوه مبتسمة تتدلى من

عنقها حلية ذهبية على شكل ثعبان وفي يدها صينية عليها كوب به سائل يشبه الماء .

قال للفتاة :

- هل هذا الماء لي؟

- أجل، سمعت أنك عطشان .

ناولته الكوب فشرب ما فيه من ماء على الفور وشكرها على إرواء ظمئه. شعر بتعب، رأى أريكة لا يجلس عليها أحد فجلس على طرفها، فذهبت الفتاة وجلست جنبه ونظرت إليه مبتسمة ولكنه لم ير ابتسامتها لانشغاله بالبحث عن أبيه في هذا المكان ولكنه لم يعثر عليه. التفت فوجد الفتاة مازالت جالسة بجواره مبتسمة فأخذ يتأمل وجهها الجميل وأمسك يدها فتركتها في يده. بغتة خلا المكان من كل من فيه ولم يبق سواهما ويدها مازالت في يده. مالت عليه وهمست في أذنه قائلة :

- غدًا نتقابل في الأوتوبيس ..

في هذه اللحظة صحا من النوم. نظر إلى ساعته التي لا يخلعها من يده في أثناء النوم فوجدها الخامسة وتسع دقائق. حاول استئناف النوم ليرى أباه في المنام ولكن النوم استعصى عليه، فقام وعمل لنفسه فنجانًا من

القهوة وجلس يحتسيه. صحت والدته من نومها وتعجبت عندما رأته مستيقظًا، قالت :

- لماذا صحوت مبكرًا على غير عادتك؟

- لست أدري، كنت أحلم وفي أثناء الحلم صحوت .

جلست والدته بالقرب منه وقالت :

- وماذا حلمت يا ترى؟

لم يشأ أن يقص عليها الحلم فقال :

- لست أدري، نسيته .

- ولكن الإنسان عادة لا ينسى ما رآه في المنام إذا صحا في أثناء الحلم .

- ولكنني نسيته .

شعر بحزن عميق لعدم رؤية أبيه في المنام وأسف على القروش العشرة التي استولى عليها شملاط بلا مقابل. ذهب لمقابلته وقال له :

- لم أر والدي في الحلم .

- متى نمت أمس؟

- قبل منتصف الليل كما طلبت مني .

- وكيف عرفت ذلك؟

- أويت إلى فراشي في نحو الحادية عشرة وما لبثت أن نمت .

- لا يمكن لأي إنسان أن يتأكد من موعد نومه .

- وما العمل الآن؟ أريد أن أرى أبي في المنام .

- ادفع عشرة قروش أخرى .

- أخشى أن تضيع سدى في هذه المرة أيضًا .

قال شملاط وقد علا صوته وبدا كوحش مفترس :

- ادفع عشرة قروش أخرى إذا كنت ترغب في رؤية أبيك في الحلم فلا وقت لدي .

وضع سمير النقود فوق المنضدة وقام شملاط ببطء ووضع في الموقد مزيدًا من البخور وأخذ يغمغم بكلماته الغامضة غير المفهومة وقال :

- قم، سترى والدك الليلة في المنام، ولكن عليك أن تكون في نوم عميق قبل منتصف الليل، دقيقة واحدة بعد هذا الموعد تفسد كل شيء .

الليلة الثانية

قال لوالدته وهو ذاهب إلى سريره الساعة العاشرة مساء :

- أرجو أن تتأكدي من أنني نمت قبل الثانية عشرة .

تعجبت والدته وقالت :

- أتأكد من أنك نمت قبل الثانية عشرة؟ لماذا؟

قال بصبر نافد :

- لا شيء. أريد التيقن من ذلك .

- وكيف أعرف أنك نمت قبل الثانية عشرة أو بعدها؟

- احضري إلى غرفتي قبل الثانية عشرة بنحو ربع ساعة وتأكدي من أنني نائم نومًا عميقًا .

تأكدت الأم من أنه في الحادية عشرة والنصف كان نائمًا نومًا عميقًا. رأى في هذه الليلة أنه مسافر إلى مدينة القاهرة في أوتوبيس الطريق الصحراوي وجميع المقاعد مشغولة بالمسافرين ما عدا المقعد المجاور له. كان ناظرًا من النافذة يتأمل منظر الصحراء التي تبدو وكأنها بلا نهاية، ثم تناول إحدى المجلات وأخذ يتصفحها وبعد فترة طوى المجلة ووضعها بجواره. لاحظ أن الفتاة الجميلة التي رآها في الحلم بالأمس قد شغلت الكرسي الذي كان شاغرًا جنبه. نظرت إليه مبتسمة فأخذ يدها وضغط عليها. اختفى جميع ركاب

الأوتوبيس ولم يعد فيه سواهما وانبعث من مكبر صوت غير مرئي صوت أم كلثوم تغني أغنية «الأطلال» شِعْر إبراهيم ناجي، وتعجب عندما لاحظ أن الأوتوبيس يسير بدون سائق. أحاط خصر الفتاة بيده فنظرت إليه مبتسمة .

ضغط على خصرها وجذبها نحوه وقبلها قبلة خاطفة، فقبلته وهمست في أذنه قائلة :

- غدًا نتقابل عند النافورة ..

ذهب إلى شملاط غاضبًا وقال :

- دفعت حتى الآن عشرين قرشًا ولم أر والدي في الحلم، ولقد تأكدت في هذه المرة أنني نمت في الموعد الذي حددته لي .

- كيف تأكدت؟

- والدتي رأتني أغط في نومي وسمعت شخيري في نحو الحادية عشرة والنصف .

- توجد روح شريرة تحول بينك وبين رؤية أبيك .

- وكيف أتخلص من هذه الروح الشريرة؟

قام شملاط يلملم عباءته وفتح درجًا صغيرًا في المنضدة وأخرج لفافة أعطاها لسمير قائلًا :

- احرق هذا البخور في غرفتك قبل النوم .

عاد شملاط إلى مكانه وهمَّ سمير بالخروج فاستوقفه شملاط قائلًا :

- لا تخرج قبل أن تضع عشرة قروش فوق المنضدة .

وضع العشرة قروش وخرج .

الليلة الثالثة

وجد نفسه في قصر يشبه قصر الحمراء بغرناطة في الأندلس ذي حديقة واسعة في وسطها نافورة حولها مساحة من الفسيفساء متباينة الألوان، تمتد منها طرقات مرصوفة بالبلاط الأزرق. خرج من أحد أبواب القصر سرب من الحسان يرتدين سراويل صفر وزرق وخضر وصداري موشاة بخيوط من الذهب والفضة. أخذت الفتيات ينشدن موشحات شبيهة بالموشحات الأندلسية ويرقصن حول النافورة، ثم ارتصصن في صفين عند أحد أبواب القصر المؤدية إلى الحديقة، وخرجت من الباب فتاة ترتدي رداءً قرمزيًا طويلًا وعلى رأسها تاج. عزفت لها موسيقى وانحنت الفتيات في أثناء مرورها. نظر إليها مبهورًا بجمالها وما لبث أن اكتشف أنها الفتاة التي التقى بها في الحلمين السابقين. أقبلت نحوه مبتسمة وطوقته بذراعيها، فاحتضنها وقبلها في فمها. سحبته من يده وجلسا على حافة

النافورة والفتيات يرقصن حولهما وينشدن الموشحات الأندلسية. بغتة، امتلأت الحديقة بعدد كبير من الفتيات والشبان والرجال والنساء، فوقف مذعورًا وترك الفتاة وجرى محاولًا الخروج من القصر. جرت خلفه وأمسكت به واحتضنته ووقف الجميع ينظرون إليهما مبتسمين، فعادا وجلسا على حافة النافورة وأخذ رأسها بين يديه وقبلها في فمها قبلة طويلة فصفق لهما جميع من في الحديقة، وبغتة اختفى الجميع ولم يبق في حديقة القصر سواهما. مالت عليه وهمست في أذنه قائلة :

- غدًا نتقابل في البيت المهجور ..

فكر في الذهاب إلى شملاط ليخبره بأنه لم ير أباه في المنام في هذه المرة أيضًا على الرغم من تنفيذه جميع التعليمات المطلوبة منه، ولكنه رأى تأجيل ذلك إلى الغد فلقد بدأ يشعر بشوق لرؤية تلك الفتاة في أحلامه .

الليلة الرابعة

تعمد في هذه الليلة أن ينام قبل العاشرة مساء متعجلًا رؤية الفتاة في البيت المهجور الذي وعدته بلقائه فيه .

رأى في المنام أنه يسير في مدينة خالية من السكان، على كل بيت من بيوتها لافتة تدل على وجود «شقق للإيجار». وقف حائرًا لا يعرف أي بيت سيتقابل فيه مع

فتاة الحلم. سمع صوتًا يناديه. نظر نحو مصدر الصوت فإذا بفتاته تطل من شرفة أحد المنازل. قالت :

- أنا هنا، ادخل واصعد إليّ .

دخل من بوابة البيت وصعد السلم فوجدها في انتظاره عند باب إحدى الشقق مرتدية فستان الزفاف. احتضنته وباسته وسحبته من يده إلى داخل الشقة. أبهره الأثاث الجميل المتناثر في أنحاء البيت في ذوق رفيع مرهف. فتحت باب إحدى الغرف فإذا بها غرفة نوم كل ما فيها ذهبي اللون. استلقت على السرير فاستلقى جنبها واحتضنها. وجد جميع النوافذ مفتوحة فقال لها :

- ألا نغلق النوافذ؟

- لا داعي لذلك .

رأى البيوت المجاورة التي كانت خالية، قد أطل من نوافذها عدد هائل من النساء والرجال ينظرون إليهما من خلال نوافذ غرفة النوم ويلقون عليهما الأزهار همست في أذنه قائلة :

- نتقابل غدًا في هذا المكان ..

لم يعد يفكر في الذهاب إلى شملاط لرؤية والده في المنام وأخذ يتعجل النوم ليرى ماذا سيحدث بينه وبين الفتاة في تلك الغرفة .

في مكان آخر، كانت الفتاة التي يراها سمير في الحلم ترى الأحلام نفسها التي يحلمها، وتتقابل معه في الأماكن التي يراها في أحلامه، فأصبح الاثنان يعرفان بعضهما معرفة حميمة دون أن يلتقي أحدهما بالآخر إلاَّ في الأحلام، لكل منهما حياة مزدوجة، حياة الواقع وحياة الحلم. كانت الفتاة تتعجل النوم لترى سميرًا في أحلامها. إنها تراه بشكله الحقيقي الوسيم، كما يراها هو بشكلها الحقيقي رائع الجمال. أحب كل منهما الآخر حبًا عنيفًا وكأنهما بطلا إحدى أساطير الحب الخالدة .

الليلة الخامسة

رأى في منامه أنه يسير في الشارع نفسه الذي كان يسير فيه في حلم الأمس ولكن المدينة في هذه المرة تموج بالبشر إناثًا وذكورًا من جميع الأعمار. تعرّف على البيت الذي تقابلا فيه في حلم الليلة الماضية ووجده كما سبق أن رآه بطلائه الأزرق ونوافذه البيض. دخل المنزل وصعد إلى الشقة فرأى فتاته تنتظره عند بابها مرتدية قميص نوم أصفر طويلًا. احتضنته واحتضنها وسارا نحو غرفة النوم التي كانت نوافذها في هذه المرة أيضًا مفتوحة على مصاريعها. خلعت ملابسها وخلع ملابسه واستلقيا على السرير جنبًا إلى جنب. ذهبا معًا إلى الحمام ووقفا تحت الدش واستمتعا بالاستحمام بماء دافئ. لاحظ أن نافذة الحمام مفتوحة

وعشرات العيون المبتسمة تطل عليهما. انهالت عليهما الأزهار من خلال نافذة الحمام. همست في أذنه قائلة :

- نتقابل غدًا في السفينة ..

اللقاء

في صباح اليوم التالي، كان يسير على شاطئ كليوباترا بالقرب من منزله بالإسكندرية. استلفت نظره فتاة تسير أمام الكبائن بالقرب من الكازينو. لم يصدق عينيه، إنها فتاته التي يراها في أحلامه .

إذن فلا بد أنني في حلم، فأنا لا أراها إلاّ في الأحلام. ولكنها قالت لي في حلم الليلة الماضية إننا سنتقابل في السفينة، أين هي السفينة؟ ربما تأتي إحدى السفن بالقرب من الشاطئ، ولكن هذا لا يمكن أن يحدث فالسفن لا ترسو إلاّ في الميناء .

لم تتركه الفتاة يسترسل في أفكاره فلقد أقبلت عليه واحتضنته فاحتضنها بقوة وتبادلا القبلات الطويلة الحارة. عندما أفاقا من نشوتهما فوجئا بالتفاف الجماهير حولهما يقذفونهما بأبشع الشتائم، ثم أقبل أحد العساكر يشق طريقه بين المتجمهرين الغاضبين وألقى القبض على سمير وفتاته. بكت الفتاة وقالت :

- إننا في حلم .

وقال سمير :

- نعم، نحن في حلم والإنسان لا يحاسب على أحلامه، ولقد فعلنا ذلك كثيرًا ولم يعترض أحد، بل كانوا يلقون علينا الأزهار .

صاح صوت غاضب قائلًا بانفعال شديد :

- يلقون عليكما الأزهار؟! هل وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ إنما تستحقان الرجم بالحجارة .

صحبهما العسكري متجهًا نحو قسم البوليس وسار خلفهما عدد من الشبان والأطفال في شبه زفة يرددون بعض الأغاني في سخرية مريرة .

قال سمير للفتاة :

- لا تقلقي، إننا في حلم انقض علينا هذه المرة على هيئة كابوس. يبدو أنه يداعبنا وسوف نصحو منه، إذ من المستحيل أن يكون هذا حقيقة .

قالت الفتاة وقد شحب لونها :

- أخشى أن يكون حقيقة .

- إذا كان حقيقة فمعنى هذا أننا كنا نحن الاثنين نحلم معًا الأحلام نفسها، فهل هذا معقول؟

- لقد همست في أذنك في حلم الليلة الماضية أن نلتقي غدًا في سفينة فهل حدث ذلك في حلمك أنت أيضًا؟

- أجل، حدث ذلك في حلمي، ولكن من يدرينا أننا الآن لسنا في حلم؟

- كانت الشمس في الحلم تسير من الغرب إلى الشرق، ولكنني لاحظت الآن أنها تسير من الشرق إلى الغرب كما هو مألوف .

عندما تفرقت الجماهير التي كانت تسير خلفهم ووجد العسكري نفسه وحده معهما. عطف عليهما فأطلق سراحهما. قالت الفتاة :

- إذا كانت هذه هي الحقيقة فمن الأفضل ألاَّ نلتقي إلاَّ في الأحلام .

- ولماذا لا نتزوج؟

- هل لديك شقة؟

- كلا، لا أستطيع شراء شقة، فلقد أصبحت جميع الشقق للتمليك بأسعار فلكية .

- وأنا لا أستطيع شراء جهاز بعد أن ارتفعت الأسعار إلى السماء السابعة .

- وما العمل؟

- نعيش في الحلم ما دمنا لا نستطيع تحقيقه .

افترقا والدموع تلمع في عينيهما وظل يلوح لها بمنديله مودعًا حتى غابت عن بصره .

الليلة السادسة

أرق سمير في تلك الليلة فلم يستطع النوم قبل الواحدة بعد منتصف الليل لم ير فتاته في الحلم كما كان يتوقع، ولكنه رأى أباه جالسًا في ركن الغرفة يبكي. سأله سمير :

- لماذا تبكي يا أبي؟

قال الأب وهو يمسح دموعه المنهمرة :

- أنا حزين يا بني، لم أستطع أن أترك لك سوى بعض الأحلام في هذه الأيام العصيبة .

بكى سمير، ثم صحا من نومه وهو يبكي .

عام 1983

القاعة الكبرى

وقف أمام القصر الكبير ناظرًا إليه. أخيرًا وصل في الميعاد، فقد كان المرور مزدحمًا للغاية وخاف أن يصل متأخرا، ولكن الحمد لله. كان القصر الكبير مزينًا وبدا في أبهى صورة. اصطف رجال الأمن عند البوابة، حيث احتشد جمع غفير من البشر حول القصر في هذا اليوم الهام. مد يده ليصلح من هندامه. رابطة العنق مضبوطة والوسام لا يزال مثبتًا في عروة الجاكتة. اقترب من المبنى مخترقًا الزحام. لاحظ أن العيون كلها تحدق فيه بإعجاب؛ البعض يبتسم ومنهم من يحاول مصافحته.. إنهم يعرفون .

وصل إلى مدخل البوابة، فرفع أحد رجال الأمن يده إلى رأسه يحيه، وقال آخر مبتسمًا: «ألف مبروك ».

حيَّاهم وصعد درجات السلم ودلف إلى المبنى الكبير وهو يشعر بشيء من الرهبة الممزوجة بالنشوة. دقات قلبه سريعة ولكنه بالتأكيد سيكون على ما يرام عندما يبدأ الاحتفال. لا داعي للقلق، فلقد سبق له حضور عشرات الاحتفالات من قبل، حظي فيها بالعديد من الأوسمة والجوائز. ولكن اليوم مختلف، إنه اليوم الكبير .

كان مدخل القصر مظلمًا بعض الشيء وخاليًا من أي زينة، تعجب لذلك فقد كانت الأضواء بالخارج براقة ومتألقة. توقع أن يجد أحد المسؤولين للترحيب بالضيوف وإرشادهم إلى القاعة الكبرى كما جرت العادة، إلا أن أحدا منهم لم يظهر بل لم يجد أيًا من اللافتات الإرشادية التي تدل على مكان القاعة الكبرى حيث تجرى مراسم الاحتفال. قرر أن يمضي في طريقه وسوف يتعرف على مكان القاعة من ازدحام الناس عند بابها وأضوائها المميزة .

صعد بنشاط، كأنه شاب في العشرين درجات السلم الرخامي المغطاة بسجاد أنيق من القطيفة الحمراء حتى وصل الطابق الثاني حيث وجد أمامه ممرًا طويلًا تنبعث من آخره أضواء قوية. إذًا فها هي على الأغلب قاعة الاحتفال. خفق قلبه وسار في الممر، لم يسمع سوى صدى وقع أقدامه في الممر الطويل الخالي. وعندما بدأ يقترب من القاعة تعالت أصوات وضحكات مرحة تتضح شيئًا فشيئًا حتى وصل ونظر من باب القاعة نصف المفتوح.. كان المكان مليئًا بالطاولات المستديرة يجلس حولها عدد من الأشخاص يتناولون الطعام. طالعته العيون بشيء من التعجب والاستفهام . يبدو أن أحدا منهم لم يتعرف عليه . وما هي إلا لحظات حتى عاد الحاضرون إلى ما كانوا عليه قبل دخوله، يتجاذبون أطراف الحديث ويمرحون وتعالت الضحكات مرة أخرى .

وقف محتارًا يدير بصره باحثًا عن أحد يرشده، حارس أو ساعٍ يسأله عن احتفال اليوم الكبير، فيبدو أنه قد دخل قاعة أخرى، ولكنه لم يجد من يرشده . كان على وشك الخروج من القاعة عندما لاحظ أن أحد الجالسين ينظر إليه بشغف. ولما تلاقت نظراتهما أشاح الجالس بوجهه عنه بسرعة وراح يتحدث إلى سيدة بجواره على نفس الطاولة .

شيء عجيب؟ كيف يُسمح بإقامة حفلات خاصة في اليوم الكبير؟ خرج من القاعة وعاد إلى الممر المظلم. هل من الممكن أن يكون الممر مظلمًا لهذه الدرجة في يوم الاحتفال! هل من الممكن أن يكون قد أخطأ في تاريخ يوم الاحتفال الكبير؟ غير معقول، فالناس محتشدة في الخارج على غير العادة. تذكر أيضًا عناوين الصحف في صباح اليوم. اليوم هو اليوم الكبير، لا مجال للخطأ. أين القاعة إذًا؟! عاد يسير في الممر الكبير حيث لا شيء ممكن أن يفعله غير ذلك. وبعد مسافة قصيرة لاحظ بابًا حديديًا مغلقًا. هل من الممكن أن يكون باب القاعة الكبرى في مثل هذا المكان المظلم وعلى مثل هذه الهيئة المزرية؟! حاول أن يفتح الباب إلا أنه سمع صوتًا خلفه. اضطرب فرأى شبحًا في الظلام يقول له :

- لا يمكنك الدخول هنا. أنا آسف يا فندم .

- من أنت؟

- أنا الساعي يا بك .

أضاء الساعي بطارية انبعث منها نور خافت، فبدت هيئته. كان يرتدي زي السعاة .

- أنا أبحث عن القاعة الكبرى التي يقام بها اليوم الاحتفال الكبير. هل تدلني عليها؟

أشار الساعي مبتسمًا إلى الباب الحديدي المقفل .

- ها هي القاعة وهذا هو بابها. ولكنك لا تستطيع الدخول .

- ألا تعرفني؟

- أنا مجرد ساعِى يا فندم. مهمتي تنفيذ اللوائح فقط لا غير .

- معي بطاقة دعوة. سوف أتسلم اليوم الجائزة الكبرى من صاحب القصر لماذا لا أستطيع الدخول؟

- طبعًا تستطيع الدخول ولكن هذا هو الباب الخلفي .

- وأين الباب الرئيسي؟

- بعيد. عليك صعود السلم ثم البحث عنه .

سكت الحارس برهة ثم قال :

- طبعًا من الممكن الدخول من الباب الخلفي حتى تختصر الطريق ولكن هناك شروطًا للدخول من هذا الباب .

- يكون من الأفضل حتى لا أتأخر. ما هي الشروط؟

- غير مسموح لى بذكرها. ألا تعرفها؟

- كلا، لا أعرفها .

نظر الساعي إليه بتمعن فرأى الوسام المثبت في الجاكتة. ثم دقق النظر في ملامح وجهه وقال :

- من ملامح وجهك والوسام الفخري الذي تضعه، أعتقد أنك فعلًا لا تعرف شروط الدخول من الباب الخلفي .

- ومن يدلني عليها؟

صمت الساعي برهة وأطرق للأرض ثم نظر إليه وقال بعد تفكير عميق :

- الأفضل أن تدخل من الباب الرئيسي. اصعد السلم واتجه يمينًا، سر في الممر الطويل وعلى بركة الله .

بدا وجه الساعي مألوفًا لديه، ربما يكون قد رآه في مكان ما من قبل .

- يخيل إليّ أنني رأيتك من قبل .

ابتسم الساعي بهدوء وقال :

- قد تكون خيالات. احترس في طريقك ربما تجد بعض الخدع والمتاهات .

أطفأ الساعي البطارية فساد الظلام وتلاشت هيئته .

ها هي درجات السلم هناك يضيئها مصباح خافت فأضحى المكان غير واضح المعالم وكأنه قصر مهجور. تعجب قليلًا ثم بدأ يصعد درجات السلم بحذر. كان السلم طويلًا حلزونيًا، ولم يجد عليه سجادًا مثل الذي كان في المدخل، فانقبض صدره. ذكره المكان بأبيات من الشعر كان قد قرأها في جريدة الصباح :

إذا مـا أظلـم الليـــلُ ونـام الطيـرُ فـي الوكـرِ

خلـوتُ بَطيفِـه وحـدي شـريدَ الـروحِ والفكـرِ

أبـثُ الطيــف أشـواقي وأشكو في الهوى أمري

يفيض الدمع من عينـي حتــى مطلـع الفجــرِ

لم يتمكن من تذكر باقي هذه الأبيات، وشعر بضيق، فأبيات الشعر تؤنسه. مر وقت طويل وبدا السلم بلا نهاية. تعجب من الكلام الذي سمعه عن باب القاعة الكبرى الخلفي. كيف يكون العثور على الباب الخلفي أقرب وأسهل من الباب الرئيسي؟ وماذا عن هذه الشروط اللازمة للدخول منه ولماذا لا يعرفها؟ ولماذا لا

يستطيع الساعي الإفصاح عنها. بدأ يشعر بالإعياء، حاول أن يتذكر باقي القصيدة ولكنه لم يستطع .

انتهت درجات السلم وتذكر أنه لا يزال عليه الاتجاه إلى اليمين ليسير في الممر. ولكنه وجد بدلًا من ذلك حائطًا كبيرًا ليس به أى ممرات. وعندما بدأ يتفحص الحائط اكتشف بمحض الصدفة ممرًا طويلًا وتذكر كلام الساعي عن «الخدع والمتاهات». مشى في هذا الممر، فهو الطريق الوحيد أمامه . الساعي! لقد رآه فعلًا من قبل! إنه نفس الرجل الذي كان جالسًا على الطاولة ينظر إليه بشغف عندما دخل القاعة الخطأ. غير معقول ولكنه متأكد. إنه الرجل نفسه، الفارق الوحيد بينهما هو الملابس التي يرتديها كل منهما. كان الأول يرتدي ملابس السهرة الأنيقة، أما الآخر فكان مرتديًا زي السعاة. توقف عن التفكير في هذا الموضوع عندما بدأ يسمع أصواتا من غرفة في نهاية الممر الطويل المظلم .

تمنى أن يكون مصدر الأصوات من القاعة الكبرى، أخذ يحاول أن يسرع الخطى بالرغم من شعوره بالإعياء، لم يكن هناك أى أثر لوجود أي احتفال. ظل سائرًا حيث لا يوجد لديه اختيار آخر. ومرة أخرى شعر برغبة في تذكر باقي أبيات القصيدة. وجد رواقًا صغيرًا في آخر الممر فدلف إليه ووجد في نهايته مصابيح ترسل ومضات من الضوء معلقة فوق باب مغلق، وكان مثبتًا على الباب شرائط زرقاء وشرائط صفراء جميلة. سمع

أصواتًا تغني خلف الباب، أسرع إلى الباب وقد نال منه الإجهاد وتمنى أن يكون قد وجد القاعة الكبرى أخيرا.. فتح الباب فسكت الغناء ونظر الحاضرون إليه. كان الحاضرون مجموعة من الأطفال يمسكون البالونات وبعضهم يرتدي أقنعة مرحة والآخرون يرتدون طراطير ورقية. كان هناك بعض الرجال والسيدات، قد يكونون أهالى هؤلاء الأطفال. وقف طفل على كرسي خلف كعكة مزينة لعيد ميلاد. نظر الطفل إليه بغضب وقال :

- من أنت؟ أنا لم أدعُك. لقد أفسدت حفل عيد ميلادي لحظة إطفاء الشموع .

- آسف يا بني، لم أقصد مضايقة أحد، كنت أبحث عن القاعة الكبرى، فرأيت هذا المكان والاحتفال واعتقدت أنني وصلت إلى ما أبحث عنه .

أطل من وسط الموجودين وجه رجل. إنه الساعي، ولكنه هذه المرة لا يرتدي ملابس السعاة بل قميصًا صوفيًا فاخرًا وبنطلونًا، نظر الرجل إليه بغضب وقد اكفهر وجهه قائلًا :

- لقد كان ولدي على وشك البدء في احتفال عيد ميلاده. إنها ليست حفلتك. القاعة التي تبحث عنها في مكان آخر في نهاية الممر. هيا اخرج .

- آسف مرة أخرى، ولكن ألست أنت الـ .....

- كلا لست أنا. تفضل بالخروج .

شعر بالخجل وهو يهم بالخروج، وعندما أقفل الباب، سمع الأطفال يغنون أغنية عيد الميلاد. استمر في السير باحثًا عن القاعة الكبرى وكلما سار اشتد الظلام وومض في ذهنه بيت شعر :

إذا ما غابت الأشباح خلفَ التـلِ والوادي

...نعم.. لقد تذكر بقية الأبيات وبدأ يردد باقي القصيدة :

إذا ما غـرد العصفـور فوق البرعــمِ النـادي

إذا ما أيقـظ الأزهــار صوتُ البلبلِ الشادي

شَكَوت الوجدَ ألحانًا وأبكـي عنـد إنشادي

أثرت فيه الأبيات. الطريق لا ينتهي والظلام كثيف موحش كأنه يمتد إلى آخر العالم. هناك بقية للقصيدة. هل يتذكرها؟ تذكر الرجل والد الطفل في عيد الميلاد، والساعي، والرجل ذا ملابس السهرة الجالس بجانب السيدة على الطاولة وتعجب. شعر بتعب شديد ولم يفهم كيف يكون الطريق للاحتفال بالقاعة الكبرى مريرًا هكذا. بدا كل شيء كأنه هذيان، كحلم مُتْعِب تحول إلى كابوس أو كابوس تحول إلى حلم .

نظر أمامه وقد استنفد منه السير كل طاقته فوجد علامة صغيرة تحتاج لمنظار ليتمكن الشخص من رؤيتها، حاول قراءتها. مكتوب «مرحبًا، هنا القاعة الكبرى ».. أهذا حلم أم حقيقة. أخيرًا ..

وجد أمامه بابًا كبيرًا ذا ضلفتين مفتوحًا. أخيرا وصل! كان يتصبب عرقًا، خجل من دخول الاحتفال الكبير والعرق يتساقط منه. أخرج من جيبه منديلًا جديدًا، كان قد اشتراه لهذه المناسبة، في محاولة لمسح بعض آثار العرق. تمنى أن يكون مظهره أفضل من حالته التي يشعر بها. اقترب ببطء من الباب ووقف في الردهة . القاعة مزينة بكل أنواع الزينة، ولكنها كانت غير مثبتة جيدًا وبعضها يتدلى من الجدران وبعضها من السقف مقطوعا، متهالكا. وجد القاعة ضخمة جدًا مكتظة بمقاعد تواجه المسرح وعلى الجانب وضِعَت طاولة طويلة تصطف عليها أباريق الشاي والقهوة المصنوعة من الفضة اللامعة وعدد كبير جدًا من فناجيل القهوة والشاي وأطباق الكعك. كان المسرح خاليًا ولا يوجد بالقاعة أحد، أما الفناجيل ففيها آثار للشاي والقهوة وبقايا طعام متناثرة بالأطباق .

هل من الممكن أن يكون قد أخطأ القاعة مرة أخرى؟ ومن أحد المقاعد وقف رجل واتجه للباب وما زال يقضم بقايا قطعة من الكعك، توجه ليسأله عن المكان :

- من فضلك أنا أبحث عن القاعة الكبرى .

كان الرجل منهمكًا في قضم الكعكة واستمر يسير في طريق الخروج ورد عليه دون أن ينظر إليه :

- هذه هي القاعة الكبرى .

- ولكن كان من المفروض أن يكون هناك احتفال. الاحتفال الكبير .

- نعم هذا صحيح. معذرة يجب أن أذهب فورا فهناك من ينتظرني .

سمع من خلفه صوتًا يعرفه من قبل . نظر فوجد الساعي مرة أخرى .

قال الساعي :

- انتهى الحفل. لقد تأخرت، أنا آسف يا فندم. كان من الممكن أن تدخل من الباب الخلفي ولكنك لا تعرف الشروط .

- لا أفهم كيف ينتهي حفل تكريمي بدوني. ماذا حدث لجائزتي؟

- أعطوها لغيرك. لا تحزن. كان يجب أن يعطوها لأحد.. لو كنت أنت موجودا لكانوا ...

خرج من القاعة، لم يشأ أن يسمع باقي الكلام. حاول الساعي أن يناديه. سمعه يقول :

- انتظر.. لا تحزن .

تلاشت الكلمات كلما ابتعد. خيَّل إليه أنه يسمع أنينًا بصوت الساعي، أم كانت قهقهة...؟ كصدى يتردد في المكان ....

لقـد حُمِّلـت يا قلبـي غـرامـا والهـوى مُـرُ

غـدًا ترتـاح مـن وجدي إذا مـا ضمنـي القبـرُ

ويبقـى الزهـر فتـانًا ويسري في الدجى البدرُ

ويشـدو الطيـر فرحـانًا كـأن لـم ينطـوِ العمـرُ

سار في طريقه متجهًا للبوابة ليخرج من القصر، رآه حارس الأمن الذي كان قد حياه عند دخوله. انتفض الحارس واقفا وقال مبتسما: «مبروك يا فندم ».

عندئذ فقط استطاع أن يتذكر أبيات الشعر كاملة (1).

عام 1999

سر الحياة

يشعر الإنسان أحيانًا بنشوة لا يدري لها سببًا، قد يكون مبعثها عبير زهرة أو ذكرى جميلة تمر على الخاطر، أو بارقة أمل تومض في الذهن، فيتفتح القلب للحياة وتنظر العين إلى الأشياء من خلال منظار وردي يلوِّن كلَّ ما في الوجود بلون بهيج .

في لحظة من تلك اللحظات، في عصر يوم من أيام شهر أغسطس منذ أعوام طويلة عندما كنت خليّ البال، كنت جالسًا في شرفة منزلنا وفي يدي مجلة أقلب صفحاتها. كدت أحسد نفسي عندما شعرت بأنني أتمتع بحرية لا تقل عن حرية ذلك العصفور الذي كان واقفًا في تلك اللحظة على حافة الشرفة .

كنت في عطلتي الصيفية، لا يشغل بالي هم المذاكرة ولا يؤرقني شبح الامتحان فلقد انتهيت بنجاح من الدراسة الإعدادية للطب، وعلى الرغم من أنني لم أكن قد بدأت دراسة الطب الحقيقية، فإن كل من بالمنزل كانوا عندما يتحدثون عني مع الغرباء يزينون اسمي بلقب «دكتور» فقد أطلقوا عليَّ هذا اللقب منذ رأوني لأول مرة مرتديًا المعطف الأبيض، ممسكًا المشرط والمقص أقطّع بهما جسدَ ضفدعة مسكينة ساقها سوء طالعها لتكون البرهان الساطع أمام أهل منزلي على استحقاقي لهذا اللقب .

كانت أصابعي وأنا جالس في الشرفة تقلب صفحات المجلة التي في يدي، ولم أجد من الموضوعات ما يثير رغبتي في القراءة، فطويت المجلة وألقيت بها فوق منضدة كانت أمامي، فطار العصفور الذي كان ينقر بمنقاره واستقر على حافة شرفة البيت المواجه لمنزلنا، ونظرت، فإذا في شرفة الجيران فتاة في ربيع العمر، كنت رأيتها في المكان نفسه عدة مرات، ولست أدري لماذا شعرت في تلك اللحظة وكأنني أراها لأول مرة، أخذت أتأملها كما يتأمل الإنسان لوحة رائعة أبدع في صنعها فنان عظيم، وشجعني على الاستمرار في عملية التأمل اعتقادي أنها لا تشعر بوجودي إذ لم تلتق عيوننا مطلقًا على الرغم من قصر المسافة التي تفصلنا .

منذ تلك اللحظة لم أعد ذلك العصفور الطليق. لقد حُدِّدَتْ إقامتي في شرفة المنزل، أظل طوال اليوم جالسًا هناك أنتظر حتى تخرج إلى شرفتها أو تطل من النافذة. فإذا أطلت، وجدت نفسي مدفوعًا إلى النظر إليها بقوة أقوى من إرادتي. صارت بالنسبة لي كأنها الشمس بالنسبة لنبات «عباد الشمس» أدور معها وأتجه إليها كلما تغيّر موضعها، وكدت أنسى كل شيء عن العالم الخارجي .

أصبحت الشرفة هي دنياي التي أعيش فيها وأطل منها على الفردوس الذي يضم حوريتي. في صباح أحد الأيام كنت كعادتي بالشرفة وفي يدي كتاب أتظاهر

بقراءته، ولكن عيني كانت متجهة نحو شرفتها كإبرة البوصلة، كلما اهتزت عادت لتستقر في الوضع نفسه. أقبلت مرتدية ثوبًا أزرق وفي يدها كتاب وجلست تقرأ، فطويت كتابي وظللت أطالع صفحة وجهها الجميل. ثم رأيت شفتيها ترسمان ابتسامة رقيقة، فشعرت بشفتي تقلدانها في حركة لا شعورية ولكنها لم تر ابتسامتي لأن عينيها كانتا مثبتتين في كتابها، فأدركت أن ابتسامتها لم تكن موجهة لي، ولابد أن شيئًا تقرأه هو سبب تلك الابتسامة فتوارت ابتسامتي في خجل وحمدت الله لأنها لم ترها وبدأت أدرك مدى تطفلي وقلة حيائي. لماذا أظل هكذا محملقًا في وجه فتاة لا أعرفها ولا تعرفني؟ !

خفت أن تتهمني بالوقاحة وسوء الخلق، ولكنني أقنعت نفسي في الحال بأنه لا داعي لتلك المخاوف إذ إن معبودتي، لحسن الحظ، لا تشعر بوجودي ولم تلتفت نحوي ولم تعرنى أي اهتمام فلن يضيرها أن يسعد إنسان برؤياها من بعيد وهذا أقصى ما يتمناه شاب مثلي مصاب بداء الخجل ولكنه يعشق الجمال .

في تلك اللحظة حدث شيء عجيب، رأيتها تطوي الكتاب وتلتفت نحوي فتلتقي عيناي بعينيها لأول مرة. شعرت بتيار كهربائي يسري في جسدي، وأخذ قلبي يدق بشدة في سرعة ورعونة. حاولت أن أعتدل في جلستي احترامًا لهذه اللفتة الكريمة ولكنني لم أستطع،

أحسست كأن جميع مفاصلي مفككة. الشيء الوحيد الذي أمكنه أن يتحرك هو رأسي. لقد تحرك حركة لا شعورية ووجدتني أحييها، فازدادت سرعة دقات قلبي وأصبح كطائر حبيس يرفرف بجناحيه حتى خفت أن ينطلق من صدري ويطير إليها كالعصفور. غمرني شعور بالخجل بسبب تلك الحركة الحمقاء، ولكن لدهشتي وسروري وجدتها ترد تحيتي بابتسامة أجمل من ابتسامتها السابقة التي ابتسمتها لكتابها، ثم أسرعت وتوارت داخل منزلها وظللت فترة قصيرة أحملق في شرفتها الخالية مشدوهًا، ثم انسحبت إلى غرفتي وأخذت أدور في أنحائها على غير هدى، وضاقت بي الغرفة فخرجت إلى البهو كانت والدتي جالسة على أحد المقاعد وفي يدها مقص وقطعة من القماش. ظللت أتحرك في أنحاء البهو حركات بلهاء بلا هدف، ثم أسرعت بارتداء ملابسي وغادرتُ البيت .

شعرت بأنني حصلت على شحنة من السعادة تكفيني مدة طويلة، فلقد صورت لي تخيلاتي أن الفتاة أحبتني، وكنت أخشى لو رأيتها مرة أخرى أن يحدث ما يفسد لذة الأحلام التي أصبحت أعيش فيها، فآثرت أن أظل متواريًا عنها كما يتوارى العنكبوت في ركن مظلم، أنسج حول نفسي نسيجًا من خيوط الأوهام اللذيذة .

أصبحت لا أنظر إليها إلا متلصصًا من وراء مصراع النافذة، مقاومًا العاطفة الملحة التي كانت تدفعني

للخروج إلى الشرفة لتحيتها. انهارت آخر حصون مقاومتي بعد يومين، فقررت الخروج إلى الشرفة ومواجهة الحقيقة مهما كانت النتائج. أخذت أرسم في ذهني طريقة التحية عندما أراها مقبلة في شرفتها، هل أحييها برأسي أو بيدي؟ وهل أظل ناظرًا إليها بعد ذلك أو أتظاهر بالاستمرار في قراءة الكتاب الذي سآخذه معي؟

استجمعت كل إرادتي وأخذت الكتاب وخرجت إلى الشرفة. تبعثرت جميع ترتيباتي عندما وجدتها جالسة في شرفتها وبدأتني هي بالتحية بانحناءة من رأسها تصحبها ابتسامة رقيقة، فرددت تحيتها في الحال بانحناءة أكبر وابتسامة أوضح وظللت واقفًا أنظر إليها مبتسمًا كالأبله، ثم تذكرت أن في الشرفة كرسيًا ينبغي أن أجلس عليه فجلست. ظللت أعبث بأوراق الكتاب الذي في يدي ولا أجرؤ على النظر إليها من جديد، ولم ينتزعني من هذا الوضع المخجل سوى شيء وجدته يسقط أمامي في الشرفة. إنه مظروف خطاب، ورأيت الفتاة تهرول إلى غرفتها وتغلق باب الشرفة .

تناولت الخطاب بيدين مرتعشتين. إنها تطلب مني في خطابها أن أنتظرها في مساء الغد في مكان حددته، فتصبب العرق من جبيني. إن الأمور تسير بسرعة مذهلة قبل أن أهيئ نفسي لها. شعرت في هذه اللحظة كأنني كنت أسير في صحراء لا زرع فيها ولا ماء، ثم

ظهرت أمامي بغتة واحة بها قصر كبير، وفُتحت لي أبواب القصر، وحملني الخدم على هودج وأجلسوني فوق عرش من ذهب وقالوا لي: هذا القصر لك بكل ما فيه ومن فيه .

في مساء اليوم التالي تقابلنا في المكان المحدد وأخذت أتأمل كيف أبدع الخالق في صنع هذه التحفة الجالسة جنبي ويدي في يدها. كنت أخشى أن أكون في حلم، فضغطت على يدها محاولًا إقناع نفسي بأن ما أراه حقيقة لا خيال، ورأيت عينيها بوضوح لأول مرة، عينان زرقاوان تظللهما أهداب طويلة كأنها تصد عنها النظرات .

كان اسمها «ليلى» فأصبحت منذ ذلك اليوم «مجنون ليلى» وظللنا نتقابل كلما سنحت الفرصة. كنت أترقب لقاءها بفارغ الصبر، حتى إذا تلاقينا نسيت الدنيا ونسيت الزمن، وأصبحت هي بالنسبة لي الماضي والحاضر والمستقبل .

وما بين لقاء وانتظار لقاء، مرت أيام الإجازة سراعًا دون أن أشعر بمرورها وأفقت من نشوتي فإذا بي أمام العام الدراسي الجديد، فكنت كجندي في الميدان أخذته سنة من النوم في لحظة هدوء رأى فيها حلمًا جميلًا، ثم استيقظ بغتة على صوت قذف القنابل .

كان علينا في هذا العام الدراسي أن نبدأ تشريح الجسم الآدمي. وفي مشرحة الكلية كنت أمضي الساعات الطوال مع زملائي وزميلاتي نقلب في الجثث التي تفوح منها رائحة الفورمالين، واعتدنا رؤيتها حتى أصبحنا ننظر إليها كما كنا ننظر إلى الضفادع والأرانب التي كنا نقوم بتشريحها في السنة الإعدادية بكلية العلوم .

كنا نقطع الجثث ونتتبع شراييها وأوردتها وأعصابها، ونفتح الجماجم وندرس أجزاء المخ وتلافيفه. في مرة من هذه المرات كان أمامي مخ آدمي، وغلبت عليَّ طبيعتي الفلسفية، فنظرت إليه ولم أجد فرقًا بينه وبين أمخاخ الخراف التي رأيتها في الصباح مرصوصة على منضدة الجزار، وأخذت أفكر وعيني مثبتة على هذا الشيء الضئيل الذي لم يعد يشعر بوجوده. كان في يوم من الأيام تدب فيه الحياة، الحياة نفسها التي تدب الآن في جسدي، يفرح ويتألم، يفكر ويدبر، ينسى ويتذكر، يخاف ويتشجع، يحب ويكره، يصحو وينام !

وكنت مستعدًا للاسترسال في مثل تلك التأملات حتى نهاية الدرس، لولا أحد الزملاء الذي انتزعني منها عندما اختطف المخ الذي أمامي وشطره شطرين كما نشطر قطعة الزبد، وأخذ يتأمل أجزاءه ويدرس تفاصيله مستعينًا بكتاب التشريح المفتوح أمامه ثم شرد ذهني في شيء جميل أخذ يطارد تلك الأفكار القاتمة، تذكرت

أن اليوم يوم الخميس وأنني على موعد في المساء مع ليلى .

في المساء جلست معها نتناول قدحًا من الشاي في الحديقة التي تقابلنا فيها أول مرة. شعرت بأن حياتي قد أصبح لها هدف أعيش من أجله، وأن ليلى هي النور الذي كشف أمام عيني جمال الدنيا وبهجتها. وفي غمرة نشوة الحب الذي فاض بها قلبي تعاهدنا على الزواج، ووعدتني بأنها سوف تنتظرني حتى أنتهي من دراستي ولن يهفو قلبها لرجل غيري مهما طال الزمن .

في الأسبوع التالي، وجدت نفسي من جديد بين جدران المشرحة تحيط بي الجثث من كل جانب. عند ذلك حدث شيء زلزل كياني وجعلني أنتفض كالمحموم .

وجدت على المشرحة جثة فتاة في مقتبل العمر. جثة عارية كباقي الجثث يمر عليها زملائي وزميلاتي وينظرون إليها ببلادة وعدم اكتراث. كانت مفتوحة العينين وعلى فمها شبه ابتسامة، رائعة الحسن، لم يستطع الموت أن ينال من جمالها، ولولا وجودها في هذا المكان البشع لظنها الرائي عذراء استلقت في دلال على رمال الشاطئ !

كانت في مثل سن ليلى، وكان التشابه بينهما كبيرًا حتى إنني اندفعت نحوها كالمجنون أتفرس في وجهها حتى تأكدت أن الجثة لفتاة أخرى. ولكن الشيء الذي روعني

هو أن عينيها كانت صورة طبق الأصل من عيني ليلى، تلك العيون الزرق الصافية. كان أحد زملائي منهمكًا في عملية استخراج إحدى العينين من محجرها لدراستها .

لم تحتمل أعصابي رؤية ذلك المشهد، فشعرت بدوار وغادرت المشرحة على الفور وذهبت إلى مقصف الكلية، حيث تناولت قدحًا من الشاي. بعد نحو ساعة رجعت إلى المشرحة، وعلى الرغم من رغبتي في تجنب منظر جثة الفتاة وجدت نفسي منجذبًا نحوها .

كان زميلي مازال مستمرًا في عملية استخراج العين، فوقفت بجواره أتأمله حتى انتهى من العملية، رأيت تلك العين الجميلة الزرقاء وقد تحولت في يده إلى كرة صغيرة يعبث بها بمشرطه، وحانت من زميلي نظرة خاطفة نحوي فهاله أن رآني شاحب الوجه أتصبب عرقًا. فاقترب مني وسألني بسخرية :

- ماذا دهاك؟ ما بك؟ ألم تعتد مثل هذه الأشياء حتى الآن؟ ارتعشت شفتاي ولكنني لم أستطع النطق بكلمة واحدة. كان بصري لا يزال مثبتًا في العين التي في يده، تلك العين التي كانت ساحرة. تركني زميلى متسمرًا في مكاني واستمر في فحص العين فشطرها شطرين، ثم أخرج عدستها ورأيت الحدقة الزرقاء وقد تحولت إلى شيء أشبه ببقعة الحبر، شيء لا روعة فيه ولا جمال .

عند ذلك بدأت أشعر بدوار، ورن في أذني صوت ضوضاء كأنها صدى لصوت بعيد، وحاولت الاستناد على المنضدة المجاورة، ثم غبت عن وعيي .

عندما أفقت وجدت نفسي ممدًا على سرير في إحدى غرف المستشفى وبجواري طبيب وممرضة وبعض الزملاء .

بعد عودتي إلى البيت اعتكفت في غرفتي وأغلقت نوافذها، إذ لم أشعر برغبة في رؤية أي إنسان .

كانت والدتي أول من رأيت. اكتشفتُ أن شيئًا في كياني قد اهتز هزة عنيفة عندما اقتربت مني ونظرت إليّ بحنان فأشحت بوجهي عنها. لقد ارتجفت عندما التقت عيناي بعينيها، أصبحت أخاف من النظر إلى العيون، حتى عيني أمي! استبدتْ بي رغبة شديدة في رؤية خطيبتي ليلى، فانتهزت فرصة خروج والدتي من غرفتي وانشغالها في المطبخ، وخرجت إلى الشرفة وانتظرت قدوم ليلى وحيتني بابتسامتها الرقيقة، وما إن التقت عيوننا حتى أصابتني الرجفة نفسها، لقد أفزعتني نظراتها، تلك النظرات التي طالما تمنيتها. هاتان العينان اللتان طالما سحرني جمالهما واستهوتني زرقتهما الصافية لم أعد أجد فيهما أي سحر أو جمال. إنهما الآن في نظري مجرد كرتين تطلان عليَّ من فجوتين في الجمجمة تتكون كل منهما من عدة طبقات وتنتهي بالعصب البصري، ممتلئة بسائل لزج، وعلى

حافتها بقعة زرقاء كنقطة الحبر يتوسطها ثقب ينفذ الضوء من خلاله ليمر من العدسة ويسقط على الشَبَكِية في قاع الكرة حيث تتكون الصورة التي ينقلها العصب البصري إلى المخ لتتحول إلى جسم مرئي .

حاولت السيطرة على نفسي، ولكنني شعرت بقطرات العرق وقد بدأت تنحدر من جبهتي، فانسحبت من الشرفة ودخلت غرفتي وأغلقت بابها وتركت ليلى ناظرة نحوي مشدوهة .

أصبحت حياتي خاوية لا بهجة فيها ولا هدف لها. كنت أحيا لا لأنني أرغب في الحياة، ولكن لأنني أرهب الموت! لقد فقد جسد الأنثى في نظري كل ما كنت أراه فيه من سحر وجمال. كنت كمن استهوته واستولت على لُبّه لعبة بارعة يقوم بها أحد السحرة، ثم عرفت سر اللعبة ففقدت إعجابي بها !

صرت كلما نظرت إلى إنسان أشعر كأن عيني تخترق جسده كما تخترق الأشعة السينية الأجسام التي تسقط عليها. أصبح كل إنسان في نظري لا يزيد على مجموعة من العظام والعضلات والأعصاب والشحم والجلد، تتحرك أعضاؤه تبعًا لحركة العضلات المسيطرة عليها، وينتشر في جسده عدد من الأوعية الدموية التي يدور فيها الدم، وعدد من الغدد التي توالى إفرازها، ومعدة تحتوي على غذاء وعصارة معدية ومتصلة بالأمعاء وملحقاتها. هذا هو ما أصبحتُ أراه في أي جسد بشري

حتى ولو كان جسد أجمل امرأة في الوجود! ظلت هذه التصورات تطاردني كأنها أشباح مرعبة لا أستطيع الهروب منها، وانقطعت صلتي بليلى إذ لم أعد أرى فيها ما يستهويني. كنت كلما رأيتها مصادفة يرتجف جسدي وأفر منها هاربًا. أصبحت عيناها ترعبني !

بدأت أهمل دراستي وأجلس في قاعة المحاضرات مشتت الفكر لا أكاد أعي شيئًا مما ينطق به الأستاذ ولا أقوى على تتبع ما يقول، ولم يكن يشغل ذهني في أثناء المحاضرة سوى متابعة حركات الأستاذ وتفسيرها من الوجهة التشريحية فإذا رفع يده أو تحرك خلف المنصة أحاول معرفة أسماء العضلات التي سببت هذه الحركات، وأتصور حركات قلبه ورئتيه، وأتخيله مرة عاريًا ومرة كأنه هيكل عظمي !

في مساء أحد الأيام بينما كنت سائرًا في أحد شوارع المدينة شارد الذهن إذا بي أجد نفسي أمام ليلى وجهًا لوجه، أو عينًا لعين! حاولت الاختباء منها ولكنني لم أستطع، إذ أقبلت نحوي مبتسمة ابتسامة حزينة، فاضطررت للوقوف والتحدث معها. بدأت تعاتبني على إهمالي إياها ذلك الإهمال المهين، فدعوتها لتناول فنجان من الشاي في الحديقة التي كنا نتلاقى فيها .

جلسنا في ركن منعزل، وظللت برهة صامتًا لا أجد ما أقوله حتى أخرجتني هي من صمتي عندما قالت بصوت متهدج :

- هل أسأت إليك دون أن أدري؟

- وهل هذا معقول؟

- إذن لماذا أصبحت تتحاشى رؤيتي وتشيح بوجهك عني كلما حاولت النظر إليك؟ لماذا تهرب مني؟

لم أستطع العثور على رد مقنع لسؤالها هذا، فأطرقت إلى الأرض ولم أجب ولاحظت أنها تبذل جهدًا كبيرًا لتبدو محتفظة بهدوئها، ثم وضعت يدها على المنضدة وأخذت تعبث بأصابعها في حركة عصبية. اتجه فكري على الرغم مني إلى حركات أصابعها، إن سببها انقباض بعض العضلات وانبساط عضلات أخرى ثم امتدت يدها وتناولت فنجان الشاي وارتشفت منه رشفة، فوجدت نفسي أتتبع سير هذه الجرعة في المريء ثم دخولها المعدة. ونظرت إلى أنفها الجميل فتسلل تفكيري إلى جيوب الأنف والقصبة الهوائية وحركات الضلوع والحجاب الحاجز، وكنت كلما نظرت إلى عينيها تصيبني الرجفة نفسها، واستولى عليَّ شيء من الفزع ولكنه تلاشى عندما أقبل بعض الشبان والفتيات يتحدثون ويضحكون ويجلسون حول المنضدة المجاورة لنا .

نظرت إلى عيني ليلى، فوجدت الحزن يطل منهما والدموع تترقرق فيهما لاحظت في هذه المرة أن نظراتها لم تضايقني. كانت عيناها مثبتتين في عيني وكأنهما تتحدثان إليّ، وترامت إلى سمعنا في هذه

اللحظة نكتة بارعة كان يحكيها أحد الشبان حول المنضدة المجاورة، ويبدو أن النكتة أعجبت ليلى فابتسمت ورأيت عينيها تبتسمان .

عند ذلك، شعرت بشيء يسري في جسدي، إحساس كنت قد فقدته. بدأت أدرك الفرق الكبير بين عيني الجثة التي رأيتها في المشرحة وعيني ليلى. قد يكون الشكل والتركيب متشابهين، ولكن هناك فرقًا بين العيون الميتة والعيون التي تدب فيها الحياة. رأيت في عيني ليلى أشياء لا توجد في العيون التي في المشرحة، إنها الحياة: الحزن، الفرح، الدموع، الألم، أشياء لا يمكن أن يراها الإنسان في عيون الموتى، فأدركت أننا لا نعشق تركيب العين ولكننا نعشق الحياة التي تدب فيها. كما أننا لا نحب الجسد وكأنه مجموعة من الآلات ولكننا نحب الروح التي تمنحه الأحاسيس والفكر والحركة والخيال والعاطفة، وأدركت أن للحياة سرًا يسحرنا ويستهوينا أودعه الله في أعماقنا ووضعه على قمة غرائزنا منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض لكي تستمر الحياة جيلًا بعد جيل .

أخذت يد ليلى في يدي وضغطت عليها، وشعرت كأن قلبي قد بدأ يخفق من جديد وقد تفجر فيه ينبوع الحب الذي كنت حسبته قد نضب، وسرى في جسدي تيار الحب مع دقات قلبي .

عام 1957

خطاب إلى الله

لا تعرف من الذي سماها «زينب» لأنها لا تذكر لها أبًا ولا أمًا ولا أقارب ولا صحاب. ولا تعلم كم مر عليها من الأعوام في هذا الوجود، ولو تذكرت لأدركت أنها بعد أيام ستتم سبع سنوات .

وكلما خلت إلى نفسها أو سارت في الطريق، تذكرت أيامًا وأحداثًا وعند ذلك لا يسعها إلا أن تبكي، عن غير فهم، وعن غير وعي .

إنها تذكر مثلًا، أنها كانت في إحدى ليالي الشتاء عند باب ضريح السيدة زينب، كعادتها، شبه عارية إلاَّ من غلالة رقيقة محت الأيام لونها، لا تذكر كيف حصلت عليها لأن ذلك كان منذ زمن لا تعيه ذاكرتها وكبرت ولم تكبر معها الغلالة فبرزت منها ساقان نحيلتان كساقي غزالة تحملان جسدًا ضامرًا ووجها مصفرًا .

وأقبل رجل بدين يشق الطريق فأسرعت إليه تطلب مليمًا تضيفه إلى المليمات الثلاثة التي جمعتها لتشتري شيئًا تأكله، فنهرها الرجل. حاولت محاولة ثانية مع سيدة فلم تعرها السيدة التفاتًا ومضت في سبيلها .

ولما أضناها التعب فكرت في الجلوس في مكانها الذي اعتادت الجلوس فيه جنب الضريح، ولن يضيرها أن تبيت ليلتها على الطوى، فهي لم تعتد تناول الطعام في

فترات منتظمة، بل يتوقف ذلك دائمًا على مدى توفيقها في الحصول على ثمن الغذاء .

وفي طريقها إلى مكانها المعتاد أبصرت سيدة أخرى فمدت إليها يدها تطلب إحسانًا، فألقت عليها تلك السيدة نظرة فاحصة وسألتها :

- ألك أهل تعيشين معهم؟

- لا، لا أعرف لي أبًا ولا أمًا .

- ولماذا تتسولين؟

- لأجمع ما أقتات به .

- ولماذا لا تعملين في أحد البيوت .

- لا أعرف طريقًا إلى بيت أعمل فيه، ولم يطلب مني أحد أن أفعل ذلك .

- وإذا طلبت منك أن تصحبيني إلى بيتي لتعملي به مقابل إطعامك هل تقبلين؟

أشرق وجه زينب وأطل السرور من عينيها وقالت :

- نعم، أقبل .

سارت زينب مع السيدة من شارع إلى شارع حتى وصلت إلى ذلك المنزل. إنه شقة في عمارة فاخرة

كبيرة. صعدا بالمصعد ودخلا تلك الشقة. قالت السيدة :

- ها هو ذا منزلنا، وعليك أن تبكري في الاستيقاظ صباحًا لتنظيفه قبل أن نصحو من نومنا .

عند العشاء أعطتها سيدتها كسرة من الخبز فالتقطتها وجلست بمفردها في المطبخ تأكلها. سألت زينب سيدتها :

- أين أنام؟

- هنا في المطبخ .

وهي تذكر أيضًا أنها عندما حان موعد النوم، تكورت في أحد أركان المطبخ ونامت بلا غطاء، وفي الصباح الباكر استيقظت وأتمت تنظيف الأرض والزجاج قبل أن يستيقظ أهل المنزل كما أمرتها سيدتها. عندما صحت سيدتها من نومها أجرت عملية تفتيش وعنفت زينب لأنها أهملت تنظيف ما تحت الكراسي، ولم تحسن تنظيف الزجاج، فاستأنفت زينب العمل حتى تم للسيدة ما أرادت .

ذات يوم، أرسلتها لشراء بعض الجبن والزيتون من عبد القادر البقال ولما عادت فحصت سيدتها الأشياء، ثم نظرت إلى زينب نظرة قاسية وقالت :

- الزيتون أقل مما اعتدنا شراءه بهذا الثمن. هل أكلتِ منه شيئًا في الطريق؟

نفت زينب نفيًا باتًا أنها أكلت منه شيئًا، ولكن سيدتها لم تصدقها، فجذبتها من يدها وجردتها من غلالتها وهوت على جسدها بعصا غليظة ثم ألقت بها في ركن الغرفة .

لماذا تضربني؟ إن يدي لم تمتد إلى هذا الزيتون ولا إلى أي شيء آخر فذلك لم يخطر لي على بال. حياتي هنا ليست أسعد حالًا منها عندما كنت أستجدي الأكف عند ضريح السيدة زينب .

فكرت في العودة إلى مكانها جنب الضريح، ولكن شيئًا واحدًا منعها، أصبحت تحب ذلك الطفل الصغير ابن سيدتها ولا تطيق البعد عنه !

وتذكر أن بضعة أيام مرت على ذلك الحادث، ثم حدث أن خرجت سيدتها مع زوجها لمشاهدة أحد الأفلام السينمائية وأوصت زينب أن تراعي الطفل، فظلت تداعبه حتى نام. حملته إلى فراشه وجلست بجواره. ولما طال بها الانتظار استندت برأسها على حافة الفراش وغلبها النوم فنامت .

عادت السيدة مع زوجها. فتح الزوج الباب بالمفتاح واتجهت السيدة إلى غرفة النوم فوجدت زينب نائمة. ركلتها بحذائها فاستيقظت مذعورة وانتصبت واقفة ثم

انسحبت من مكانها بركن المطبخ وجلست منكمشة ولم تعطها سيدتها تلك الليلة كسرة الخبز، التي اعتادت إلقاءها لها كل مساء عقابًا لها على نومها قبل حضور سيدتها .

توالت الأيام، وزينب تقاسي من سيدتها متحملة ما لا يمكن أن يحتمله غيرها من ضرب وصفع وإيذاء، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي جذبتها فيه السيدة من ذراعها وانقضت عليها تحرق جسدها بحديدة محماة في النار، فأفلتت من يد سيدتها وانطلقت تعدو مبتعدة عن ذلك البيت .

في الطريق التقت بمبروكة إحدى خدم العمارة. كانت زينب تبكي فسألتها مبروكة عما بها. قصت عليها قصتها فقالت لها مبروكة :

- لماذا لا ترسلين خطابًا إلى أبيك لينقذك من هؤلاء الناس؟

لم تجب زينب عن هذا السؤال واستمرت تبكي. قالت مبروكة :

- أنا أيضًا سئمت الحياة مع الذين أخدمهم فأرسلت خطابًا إلى أبي ليحضر ويأخذني من هنا .

- من الذي كتب لك الخطاب؟

- كتبه لي عبد القادر البقال. إنه رجل طيب .

أطرقت زينب إلى الأرض برهة ولاذت بالصمت، ثم افترقتا وسارت كل واحدة في طريقها .

لمن أكتب الخطاب؟ إنني لا أب لي ولا أم ولا أقارب، وأنا أخدم هؤلاء الناس ولا أطالبهم بأكثر من كسرة الخبز التي يعطونها لي. لمن أكتب الخطاب؟

شعرت بأنها لابد أن تكتب خطابًا لأي شخص لينقذها من هذا الشقاء .

جميع الخدم الذين عرفتهم كلما شعروا بظلم مخدوميهم يسرعون إلى عبد القادر البقال ليكتب لهم خطابًا إلى ذويهم، وأنا لا أعرف أحدًا . في خضم حيرتها وعذابها خطرت لها فكرة .

لماذا لا أكتب خطابًا إلى الله؟! إنني أسمع اسمه كثيرًا من الناس الذين يأتون للصلاة في جامع السيدة زينب، وأسمعه في الأذان ينادي به الرجل بأعلى صوته من فوق المئذنة، وأفهم أنه هو الذي يعطف على المساكين ولا يظلم الناس ولا يحب الظلم. إذا كتبت الخطاب إليه وألقيته في ذلك الصندوق الذي أرى الناس يلقون بخطاباتهم فيه، فلا بد أن يصله الخطاب .

وسارت نحو دكان عبد القادر البقال، وعلى باب الدكان وقفت . نظر إليها البقال مستفهمًا عما تود شراءه،

فنظرت إليه ثم أطرقت إلى الأرض وأخذت تعبث بأصبعها في الأرز الموضوع في مدخل الدكان فنهرها البقال قائلًا :

- ابعدي أصابعك القذرة عن الأرز، ماذا تريدين؟

جلست القرفصاء ووضعت رأسها بين يديها وأجهشت بالبكاء، نظر إليها البقال متعجبًا وأقبل عليها يسألها :

- ما بك يا بنتي؟ لماذا تبكين؟ هل ضربتك سيدتك؟

- ضربتني وحرقت جسمي بالنار .

كشفت عن بعض أجزاء جسدها المحترق فاقشعر بدن البقال وقال :

- ماذا تريدين يا بنتي أن أصنع لك؟

- أريد أن أكتب خطابًا .

- لمن؟ لأبيك؟

- ليس لي أب .

- هل أكتب لأمك؟

- ليس لي أم .

- ألأحد أقاربك؟

لاذت بالصمت. قال البقال :

- لمن أكتب الخطاب إذن؟

نظرت إليه نظرة حزينة وترددت في الكلام. فأعاد الرجل سؤاله، فأجابت :

- إلى ربنا .

في هذه اللحظة دخل رجل إلى الدكان يريد شراء بعض الأشياء فانشغل معه عبد القادر. لما انتهت عملية البيع عاد عبد القادر يسأل زينب :

- ماذا قلت؟ لمن أكتب الخطاب؟

- إلى ربنا .

أخفى عبد القادر ابتسامة كانت تود أن ترتسم على فمه وقال :

- وأين ستلقين الخطاب بعد كتابته؟

- في صندوق البريد .

وفي لمح البصر ارتمت على قدم البقال تقبلها وترجوه أن يكتب لها خطابًا إلى الله تشكو إليه ما أصابها في الدنيا وترجوه أن يأخذها إلى جواره واندفعت تقول باكية :

- لا أعرف سوى ربنا، وهو الذي خلقني. اكتب لي خطابًا إلى ربنا .

بدا التأثر واضحًا على وجه عبد القادر وكادت تطفر الدموع من عينيه، واعتقد أنه لو رفض طلب هذه البائسة فسيحجب عنها شعاع الأمل الوحيد الذي ومض أمامها في ظلمة الحياة التي تحياها. فتح درجًا وأخرج منه ورقًا وقلمًا وقال :

- سأكتب لك خطابًا إلى ربنا. فماذا تريدين أن تقولي له؟

- اكتب له أن يأخذني عنده، فأنا مسكينة، أليس هو الذي خلقني؟

تظاهر عبد القادر بالكتابة، ثم أخرج مظروفًا ووضع الخطاب فيه وأقفل المظروف وسلمه إلى زينب. أطبقت يدها على الخطاب بشدة ولم تفكر في وضع طابع البريد، فهذا شيء لا تعرفه. وفي خطوات حائرة مضطربة ذهبت نحو صندوق البريد، وحاولت إلقاء الخطاب فلم تستطع يدها الوصول إلى فتحة الصندوق. انتظرت مرور أحد المارة وأعطته الخطاب ليلقيه، فأخذه منها وألقاه دون أن ينظر إليه .

شعرت لأول مرة في حياتها بسعادة لم تعرفها من قبل، لقد وجدت من ترسل إليه خطابًا كما يفعل غيرها من الخدم عندما يرسلون الخطابات إلى ذويهم .

متى يصل الخطاب إلى ربنا؟ ترى هل سيصله اليوم؟ وإلى أين أذهب الآن؟ هل أذهب إلى مكاني جنب جامع السيدة زينب؟ سأجلس هنا تحت صندوق البريد أنتظر الرد .

جلست القرفصاء وأسندت رأسها على ركبتيها، وبعد فترة رفعت رأسها فإذا بها وجهًا لوجه أمام سيدها. سرت في جسدها رعشة وانتصبت واقفة وكأنها رأت عفريتًا. جذبها الرجل من ذراعها جذبة قوية وأمرها بالرجوع إلى المنزل، وظل قابضًا على ذراعها حتى دخلت من باب الشقة .

استقبلتها سيدتها بصفعة قوية على وجهها أذهلتها وانهالت عليها ضربًا ولكمًا وسبًا. وأقبل المساء، فنام أهل المنزل ونامت زينب في مكانها بالمطبخ .

في الصباح صحا أهل المنزل، ونادتها سيدتها فلم تسمع إجابة وظنتها غافلتهم وهربت مرة أخرى. فهرعت إلى المطبخ تبحث عنها. وجدتها متكورة في ركن المطبخ. ركلتها بقدمها ركلة قوية لتوقظها فلم تستيقظ زينب، ولن تستيقظ .

عام 1948

سيمفونية

حانت ساعة الانصراف، جمع الأوراق التي يتحتم عليه فحصها ودراستها في منزله، وحشا بها حقيبته التي لازمته أكثر من عشرين عامًا وغادر مكان عمله. وقف على الرصيف ينظر إلى السيارات المنطلقة منتظرًا لحظة مناسبة لعبور الطريق. لم ينقطع سيل السيارات فظل واقفًا يتلفت يمينًا ويسارًا. وسط زحام السيارات رأى صبيًا راكبًا دراجة واضعًا فوق إحدى كفيه لوحًا فوقه هرم من الأرغفة ويقود دراجته باليد الأخرى وفوق رأسه لوح مماثل .

ظل ناظرًا إليه حتى اختفى عن بصره متعجبًا من توازنه بهذا الوضع وسط سيل السيارات الهادر. لم تنقطع تيارات السيارات حتى عند إضاءة اللون الأحمر الذي يأمر السيارات بالتوقف، إذ إنه من المسموح به في هذه الحالة أن تتجه بعض السيارات إلى اليمين أو إلى اليسار فلا يخلو الطريق لحظة واحدة لعبور المشاة !

خاطر بحياته، كما يفعل كل يوم، وأسرع مهرولًا يخترق الشارع ووصل إلى الجانب الآخر سالمًا. اتجه نحو محطة الأوتوبيس ووقف مع كتلة من النمل البشري، وبعد نحو أربعين دقيقة أقبل الأوتوبيس مائلًا على جانبه الأيمن وقد برزت من بابيه ونوافذه رؤوس

وأجسام آدمية. لم يجد موضعًا لقدمه فظل واقفًا ينتظر أوتوبيسًا آخر .

وصل الأوتوبيس التالي بعد نحو نصف ساعة أكثر ازدحامًا من الذي سبقه، ولما كان لا ينوي المبيت عند محطة الأوتوبيس فلقد صمم على الركوب في هذه المرة مهما كانت الظروف. اندفع كالصاروخ يشق طريقه وسط الأجساد المتلاحمة، وسار الأوتوبيس وقد أصبح أكثر ميلًا على جانبه الأيمن حتى أوشك أن يخرج مركز ثقله عن مضلّع ارتكازه فيصبح ذلك الجانب الأيمن فوق أرض الشارع. بعد نحو ربع ساعة توقف الأتوبيس وصاح الكمساري قائلًا :

لقد تعطل الأوتوبيس، انزلوا واركبوا أوتوبيسًا آخر .

لم يتذمر أحد بل هبط الجميع في استسلام وأسرعوا نحو أقرب محطة في انتظار أوتوبيس آخر. تضاعف عدد المنتظرين عندما انضم إليهم هذا الفوج الجديد، وبعد نحو عشرين دقيقة وصل أوتوبيس آخر محشو بالآدميين فلم يستطع الركوب .

وقف ينتظر الأوتوبيس التالي، طال انتظاره ففكر في ركوب تاكسي. أخذ يشير إلى كل تاكسي عابر وعلى وجهه سمات المذلة والاستجداء. بدأ يشعر بأن الحقيبة التي يحملها في يده اليسرى قد ازداد وزنها. لم

يستجب لندائه أي سائق تاكسي فعاد للوقوف مع الجماهير المحتشدة عند محطة الأوتوبيس .

وصل الأوتوبيس مزدحمًا فهجمت الجماهير تتسابق نحو بابيه، وتمكن من الركوب واضعًا قدمًا عند حافة باب الأوتوبيس والقدم الأخرى في الهواء وبعد هبوط بعض الركاب وركوب آخرين في أثناء الطريق وجد نفسه محشورًا بعيدًا عن الباب قبل وصوله إلى الشارع المؤدي إلى منزله. بدأ يستعد لمغادرة الأوتوبيس وتمكن من الخروج منه بصعوبة أكثر من تلك التي واجهته عند خروجه من بطن أمه. وعندما وضع قدميه على أرض الشارع بدأ يصلح هندامه ويتحسس محفظته للتأكد من وجودها في مكانها، فاليوم أول الشهر وفي محفظته مرتبه، سبعة وثمانون جنيهًا. حمد الله عندما وجد المحفظة لم تنشل منه كما حدث منذ ثلاثة شهور .

بعد أن سار نحو عشر دقائق في اتجاه منزله تذكر أن زوجته كانت قد طلبت منه أن يمر على المجمّع الاستهلاكي لشراء دجاجة؛ لهم الحق في استلامها كل شهر. عاد إلى المجمع وقد بدأ يشعر بوطأة ثقل الحقيبة أكثر من ذي قبل. أبصر طابورًا طويلًا ممتدًا وملتويًا كالثعبان أمام باب المجمع. سأل أحد الواقفين في الطابور عن السلعة التي يقف في طابورها فأجاب الرجل قائلًا :

- لست أدري، وجدت طابورًا فوقفت فيه .

ولكن رجلًا آخر قال :

- إنه طابور الدجاج .

وقف في نهاية الطابور، سرحت أفكاره في أشياء عديدة. تذكر أن رئيسه أهانه لأول مرة أمام زملائه لذنب لم يقترفه. انتبه فإذا به لا يزال واقفًا في المكان نفسه من الطابور لم يتقدم خطوة واحدة. أخذ يحسب المدة الباقية له للإحالة إلى المعاش وهل سيعيش حتى يبلغ هذه السن؟ وإذا عاش كيف سيواجه الحياة بمعاش ضئيل والأسعار دائمة الارتفاع؟ قفزت في ذهنه صورة رئيسه السابق الذي أحيل إلى التقاعد منذ نحو عامين، وأنه عندما حضر إلى المصلحة بعد ذلك للاستفسار عن أمر من الأمور لم يهتم به أحد من مرؤوسيه السابقين، حتى الساعي الذي كان يقف عند باب غرفته ظل جالسًا ولم يعره التفاتًا عندما مر أمامه. تقدم الطابور خطوة فتحرك الرجل خطوة إلى الأمام .

تذكر خاله الذي توفي منذ أعوام عديدة، كان يتقاضى سبعين جنيهًا في الشهر ولم يكن له أي دخل عدا هذا المرتب، كان يعيش في أرقى أحياء المدينة في فيلا فاخرة من دورين تحيط بها حديقة واسعة ويمتلك سيارة ضخمة يقودها سائق، وعنده الطباخ والسفرجي والخدم والحشم، وكان في كثير من الأحيان يقيم الولائم لعلية القوم، بينما يتقاضى هو سبعة وثمانين

جنيهًا في الشهر ويقف في الطابور للحصول على دجاجة. تقدم الطابور خطوة .

فكر في مرض ابنته وفي مستقبلها بعد وفاته، إنها الآن في نحو الرابعة عشرة. لقد باع غرفة الطعام في العام الماضي لعلاجها من مرض الصرع ولكن بلا جدوى ويفكر الآن في بيع غرفة الصالون. ولكن أين يستقبل الضيوف الذين قد يفكرون في زيارته؟ تقدم الطابور خطوة أخرى .

شعر بأوجاع في ركبتيه وعموده الفقري. إنه يعاني من آلام روماتيزمية وضعف في السمع بسبب الضجة المستمرة التي تلطم طبلتي أذنيه في كل مكان ولكنه لا يهتم بعرض نفسه على أحد الأطباء، تفكيره في مرض ابنته يشغله عن التفكير في أمراضه. إن جميع أفراد أسرته يعانون أيضًا من ضعف السمع ولكن هذا لم يعد يقلقه فلقد أصبح كل من يعرفهم مصابين بضعف السمع بسبب الضجة التي تنبعث حولهم طوال اليوم، حتى رئيسه يعاني من ضعف السمع للسبب نفسه. بعض أصدقائه فكروا في دراسة لغة تحريك الشفتين، أي التفاهم عن طريق حركة الشفتين بسبب الضوضاء المتواصلة التي تجعل سماع الأحاديث متعذرًا فيضطرون للصياح فتزداد الضجة نتيجة لذلك .

وأخيرًا، وجد نفسه وجهًا لوجهه أمام البائع، لقد أصبح في مقدمة الطابور. نظر خلفه وإذا بالطابور لا يزال

ممتدًا ومتعرجًا كما رآه عند قدومه. طلب من البائع الدجاجة التي له الحق في تسلمها بالبطاقة كل شهر. قال له البائع إن آخر دجاجة في المجمّع تسلمها الرجل الذي كان واقفًا أمامه في الطابور. حزن حزنًا شديدًا لعودته إلى منزله بدون تلك الدجاجة .

منذ أمد بعيد يشعر وكأنه يعيش في مدينة فينيسيا. المجاري طافحة في الشارع وهو يحمد الله على أن حاسة الشم لديه بدأت تضعف كما ضعفت حاسة السمع، وهذا مظهر من مظاهر التكيف مع البيئة. لقد وضع الناس بعض أحجار على مسافات متقاربة وكأنها جزر صغيرة تبرز من طفح المجاري يتحتم عليه أن يخطو فوقها ليصل إلى منزله. سار بصعوبة فوق تلك الأحجار واضعًا قدمه فوق كل حجر بحرص شديد حتى لا تنزلق. قفزت في خاطره في هذه اللحظة أغنية الجندول، شعر علي محمود طه وغناء محمد عبد الوهاب. فكر في التعاون مع بعض جيرانه لشراء قارب قديم مستعمل يستخدمونه في تنقلاتهم من منازلهم حتى نهاية الشارع، ولكنه طرد هذه الفكرة من ذهنه لضيق ذات اليد. تذكر أنه عندما كان صبيًا كان يصافح وجهه عند دخوله الفيلا التي كان يعيش فيها خاله نسيمٌ عليل عاطر بأريج الورد والياسمين. منذ سنوات عديدة لم يشعر بمثل هذا النسيم. أين ذهب النسيم العليل؟ هل انقرض كما انقرض الجمبري وطمي النيل؟

أم زالت عنه العلة واسترد عافيته فتحول إلى عواصف رملية .

شعرت زوجته بخيبة أمل عندما علمت أنه لم يحضر الدجاجة. صرخت ابنته وانتابتها حالة صرع فسقطت على الأرض والزبد يتراكم عند طرفي فمها. ضمها الأب إلى صدره وأخذت الأم تربت على ظهر ابنتها بحركة لا شعورية كما اعتادت أن تفعل، بعد فترة طويلة بدأت الابنة تفيق من غيبوبتها .

تناول الأب على وجه السرعة غداءه المكون من شوربة العدس وقطعة من الجبن القريش، ثم أخذ حقيبته ووضعها على منضدة صغيرة وأخرج منها أوراقًا ظل يدرسها ويراجعها حتى أقبل المساء فذهب إلى فراشه .

إنه يهوى القراءة ولكنه لا يجد من الوقت ما يسمح له بذلك إلا في الفترة القصيرة التي يهيئ فيها نفسه للنوم. بدأ يقرأ كتابًا بعنوان «دع القلق وابدأ الحياة». بعد قراءة نحو صفحة ونصف انطفأ النور في جميع أنحاء الحي الذي يعيش فيه، فطوى الكتاب ووضعه بجواره على الكومودينو واستعد للنوم. اقتحمت زوجته الغرفة وفي يدها لمبة بترول وقالت له في فزع إن درجة حرارة ابنه البالغ من العمر نحو عشر سنوات، مرتفعة ويشكو من ألم شديد في بطنه، فقفز الرجل من الفراش وأسرع لرؤية ابنه. وجده يبكي ويتلوّى من الألم. أسرع إلى التليفون لاستدعاء الطبيب فوجد

التليفون جثة باردة وقد انتقلت حرارته إلى جسد ابنه. احتار ولم يدر ماذا يصنع .

أخذ يتخبط في الظلام وأسرع بارتداء ملابسه واجتاز بركة المجاري. حاول الاتصال بالطبيب عن طريق تليفونات عدد من الدكاكين والمحال العامة فلم يجد تليفونًا واحدًا منها صالحًا لأداء وظيفته. هرول باحثًا عن تاكسي يوصله إلى منزل أحد الأطباء فلم ينجح في الحصول على تاكسي. انطلق يجري بأقصى سرعته حتى وصل إلى منزل الطبيب الذي هبَّ من نومه واستقل سيارته وبصحبته والد الطفل، واكتشف الطبيب أن الطفل مصاب بالتيفويد وعلى ضوء لمبة البترول وبطارية صغيرة كتب الطبيب دواء وطلب من الأب سرعة الحصول عليه ليتناوله الطفل على الفور .

ذهب الرجل إلى أقرب صيدلية فلم يجد الدواء، وانطلق يعدو باحثًا عنه في جميع الصيدليات التي تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل. قالوا له إن الدواء ناقص في السوق. حاول الاتصال بالطبيب عن طريق تليفون إحدى الصيدليات. ظل الجرس يرن دون أن يرد عليه أحد، فعاد إلى المنزل وقد فشل في الحصول على الدواء أو أي بديل له .

بعد فترة قصيرة من عودته لمنزله سمع طرقًا على الباب، تردد في فتحه وتعجب من ذلك الشخص الذي يطرق بابه في هذه الساعة المتأخرة من الليل. أسرعت

زوجته وفي يدها لمبة البترول ووقفت بالقرب منه في بهو الشقة. عاد الطرق بقوة وإصرار ووقفت زوجته حائرة لا تدري ماذا تصنع. صرخت الابنة فأسرعت إليها أمها وتركت زوجها مترددًا في فتح الباب. استمر الطرق، فاتجه نحو الباب بوجه عبوس وفكّر مضطرب. أسرعت الزوجة وقفت صامتة بجوار زوجها وفي يدها المصباح. تسللت الابنة ووقفت ملتصقة بأمها. فتح الأب الباب في حذر. وجد أمامه ثلاثة من رجال الشرطة فعقدت الدهشة لسانه وندت عن زوجته صرخة مكتومة. طلب منه أحدهم أن يَصْحبهم، قال الزوج بدهشة :

- إلى أين؟

قال رجل الشرطة :

- إلى مكان ستعرفه فيما بعد .

- بل لابد أن أعرف الآن إلى أين أنتم ذاهبون بي وسبب ذلك. أسرعت زوجته ووقفت بجواره مشدوهة وجسدها يرتجف، قال أحد رجال الشرطة بعنف :

- هيا معنا .

- كلا، لن أذهب معكم، ابني في خطر وابنتي مريضة وزوجتي لا تستطيع الحياة بدوني لحظة واحدة في هذه الظروف القاسية .

- لا شأن لنا بظروفك العائلية .

في لمح البصر جذبه أحد رجال الشرطة، فصرخت الزوجة وانتابت الابنة حالة صرع. صحا الابن المريض من نومه وسار مترنحًا في الظلام صارخًا مناديًا أباه وأمه. وحاولت الزوجة التشبث بزوجها. صوب أحد رجال الشرطة مسدسه نحوها فعلا صراخُها وصراخ ابنتها وابنها ووجد رب الأسرة نفسه خارج شقته. كمم أحدهم فمه ووضع آخر عصابة على عينيه. حملوه وأنزلوه بالقوة من سلم المنزل ووضعوه في سيارة انطلقت بهم بأقصى سرعتها. أخذ الرجل يفتش في تلافيف مخه عن جريمة اقترفها يستحق من أجلها العقاب فلم يجد .

ظلت السيارة منطلقة، تسرع ثم تبطئ، وتعود تسرع وتبطئ، وتصعد وتهبط، وصراخ ابنته يرن في أذنه ومرض ابنه يعتصر قلبه ونظرة الأسى والرعب التي رآها في عيني زوجته تهز كيانه ومصيره المجهول يصيبه برعشة والجريمة التي لم يقترفها تحير فكره. شعر بالسيارة تصعد مطلعًا شديد الانحدار يكاد يكون عموديًا ثم توقفت، سمع أبواب السيارة تفتح وأحس بيد ترفع العصابة عن عينيه. وجد نفسه على قمة تل أمام مبنى يشبه القلعة ذي بوابة حديدية مغلقة. وقف ينظر إلى البوابة في ذهول وبجواره رجال الشرطة الثلاثة. فُتحت البوابة. دخلوا.. قاده رجال الشرطة إلى

غرفة صغيرة على اليسار بها رجل سمين جالس خلف مكتب صغير نظر إليه الرجل السمين وظل ناظرًا إليه بضع لحظات ثم قام ببطء وفتح صوانًا أخرج منه دفترًا كبير الحجم. أخذ يقلب في صفحاته حتى استقر عند صفحة معينة قرأ كل سطر فيها، ثم نظر إلى رجال الشرطة وقال :

- لقد ارتكب جريمة بشعة. خذوه إلى المكان رقم اثنين .

قاده رجال الشرطة إلى مبنى يبدو كئيبًا متداعيًا. انقضوا عليه وجردوه من جميع ملابسه، ثم أدخلوه في غرفة ضيقة مظلمة تشبه الحمام ووضعوه تحت الدش فهطلت على جسده العاري مياه شديدة البرودة لا تزيد درجة حرارتها على ثلاث درجات مئوية فوق الصفر وبعد برهة تغيرت درجة حرارة المياه بغتة وأصبحت ثمانين درجة مئوية، وبعد فترة عادت درجة حرارتها إلى ثلاث فوق الصفر. ظلت درجة حرارة المياه تتبدل هكذا عدة مرات، ولكن الرجل ظل هادئًا لا يبدو عليه الشعور بأي ألم .

قادوه إلى غرفة أخرى مجاورة بها عملاق أسمر في يده سوط ذو ثلاثة أفرع فانهال على جسده يلهبه بالسياط. لم يبد على الرجل أي شعور بالألم .

أدخلوه بعد ذلك غرفة فسيحة بها عدد من الكلاب الضخمة الشرسة. هجمت عليه الكلاب وأخذت تنهش جسده، ولكنه ظل هادئًا وكأن الكلاب تفترس شخصًا آخر لا يمت له بأية صلة. أسرع أحد رجال الشرطة إلى التليفون وأدار رقمًا معينًا فرد عليه صوت يقول :

- ماذا حدث؟

- أذقناه جميع أنواع التعذيب التي بالمكان رقم اثنين ولكنه لم يشعر بأي ألم .

- انقلوه إلى المكان رقم ثلاثة .

اقتادوه وهو مازال عاريًا إلى المكان رقم ثلاثة. أدخلوه غرفة على بابها لافتة صغيرة تحمل هذه الجملة. «غرفة الأهوال». علقوه من قدميه في خطاف مدلى من سقف الغرفة وانقض عليه رجل ضخم الجثة أخذ يخلع أظافره واحدًا بعد الآخر حتى خلع جميع أظافر يديه وقدميه. لم يشعر بالعذاب. تركوه بمفرده بالغرفة وأغلقوا بابها وأداروا جهازًا يحدث داخل الغرفة صوتًا عاليًا مستمرًا لا تحتمله أذن الإنسان. وبعد نصف ساعة فتحوا باب الغرفة فوجدوه هادئًا غير شاعر بأي ألم .

أحضر الرجل الضخم قضيبًا محمي إلى درجة التوهج وأخذ يقربه من جسد الرجل شيئًا فشيئًا، ثم وضعه فوق جلده ففاحت رائحة شواء اللحم. لم يبد من رب

العائلة ما يدل على أنه تألم. أخذ الرجل الضخم يلسع أجزاء مختلفة من ذلك الجسد المدلى ولكن رب العائلة ظل هادئًا وكأنهم يدلكون جسمه تدليكًا خفيفًا .

احتار رجال الشرطة ولم يعرفوا ماذا يصنعون بهذا الرجل ليشعر بالعذاب ويقاسي من الألم. اقتادوه إلى غرفة فسيحة بها مكتب فاخر يجلس خلفه رجل نحيل أصفر الوجه ذو عينين كعيني بومة. قال أحد رجال الشرطة :

- هذا الرجل حيرنا، إن أنواع التعذيب التي في المكانين الثاني والثالث لا تؤثر فيه .

ظل الرجل النحيل الأصفر ناظرًا إليه نحو نصف دقيقة ثم هز كتفيه وقال :

- خذوه إلى المكان رقم أربعة .

زجوا به في غرفة ينبعث من أرضها لهب ووقفوا خارج الغرفة يلاحظونه من خلال طاقة من الزجاج ويتحدثون إليه من خلال ميكروفون. أمره أحد رجال الشرطة بالمرور خلال اللهب. مر خلال اللهب. أمره بإعادة الكرَّة. ظل يخترق اللهب جيئة وذهابًا غير شاعر بأي عذاب فعادوا به إلى الرجل النحيل الأصفر. قال أحد رجال الشرطة :

- لقد مر عدة مرات خلال اللهب ولم يشعر بالألم، لا ندري لماذا لا يستجيب هذا الرجل لجميع أنواع العذاب التي لدينا؟ !

تناول الرجل النحيل من أحد الأرفف التي خلفه علبة كبيرة من الورق المقوى فتحها وأخذ يفحص ما فيها من أوراق ثم قال :

- انقلوه إلى المكان رقم واحد فالعذاب فيه أشد .

سمحوا له بارتداء ملابسه. وضعوا العصابة على عينيه وأركبوه معهم السيارة التي انطلقت بأقصى سرعتها، وبعد فترة طويلة توقفت. أزاحوا العصابة عن عينيه وطلبوا منه مغادرة السيارة. غادر السيارة فوجد نفسه أمام منزله .

عام 1978

عزف منفرد

تحيط بي كل أسباب السعادة كما يحيط الموج بالسفينة، فأنا إنسان محظوظ لا ينقصني شيء. جميع آمالي وأحلامي تحققت ولله الحمد أحيا حياة مستقرة رغدة، ولكن الشيء الذي يحيرني هو شعوري بحزن دفين في أعماقي، وتطفر من عيني أحيانًا بعض قطرات من الدموع البلهاء التي لا أعرف لها سببًا .

لقد ظفرت بالحصول على مأوى، ولو أنه لا يزيد على غرفة واحدة، إلا أنني أعتبر ذلك من دواعي سعادتي، فأنا إنسان قنوع، ودخلي المتواضع لا يتيح لي السكنى في شقة تزيد على غرفة واحدة، ومادام الإنسان لا يمكن أن يوجد في مكانين في وقت واحد، فإن غرفة واحدة تكفيني، وأنا سعيد بها كل السعادة. أما فقري فأنا أحمد الله عليه، فأعظم الأنبياء عاشوا وماتوا فقراء، والمال أصل كل الشرور ولقد جنبني الله هذا الشر الوبيل وكرمني بأن أنعم علي بنعمة الفقر، إذ جعلني أشترك في صفة من الصفات مع أعظم أنبيائه المختارين .

وحنيني لغرفتي شديد، ولذا تجدني في معظم الأحيان جالسًا أو منبطحًا على ظهري بين جدرانها الثلاثة لا أغادرها إلا للضرورة القصوى، وكونها ذات جدران ثلاثة

يضفي عليها شخصية متميزة، إذ تختلف عن الغرف التقليدية ذات الجدران الأربعة، فهي تقع في ركن منزل مثلث الشكل .

والأثاث في غرفتي بسيط، أجلس وأنام على حصيرة. وعدم قدرتي على شراء سرير لا يضايقني، فالنوم على الحصيرة يفيد العمود الفقري ويمنع عنه الأذى. قرأت ذلك في أحد الكتب، فأنا قارئ نهم أقضي ساعات طويلة أقرأ في دار الكتب. وعندما يحل الظلام لا أخشى انقطاع التيار الكهربائي، لأنني أضيء غرفتي بلمبة بترول تضفي على الغرفة جوًا شاعريًا يناسب طبيعتي .

ويشاطرني المعيشة في غرفتي عدد هائل من الحشرات وثلاثة فئران اتخذت من جحر في أحد أركان غرفتي مأوى لها. وعندما أغمض عيني لأنام لا يعتريني أي فزع عندما أشعر بصرصار بريء يسير فوق وجهي، أو ذيل فأر يداعب قدمي، فهي مخلوقات وجميع المخلوقات بها نفحة من روح الله الذي خلقها، فهل من المعقول أن أنزعج من مخلوقات بريئة فيها نفحة من روح الله؟ ولذا فإنني أعتبر وجودها في غرفتي نعمة وبركة. وهي لا تكلفني شيئًا، إذ تسعى إلى رزقها وتتولى أمر نفسها دون أن تحملني عبء طعام أو كساء. ولا أعرف كيف تحصل على الطعام الذي يتيح لها البقاء على قيد الحياة

وغرفتي لا يبقى بها أي أثر للطعام؟ الله يرعاها ويتولاها بعنايته .

ومن دواعي سروري أن غرفتي بالبدروم، وهذا يجنبني عناء صعود السلم. وهي في حي شعبي ذي صوت وحركة. يظل ينبض بالحياة ليلًا ونهارًا. وبعض الناس قد يضايقهم ذلك. أمس مر بجوار نافذة غرفتي رجلان، سمعت أحدهما يشكو إلى الآخر من الضجة والزحام في هذا الحي الذي أعيش فيه، ولكن من حسن حظي أنني أعشق الضجة والزحام، فهما يشعرانني بالأمان. أصوات الناس وصياحهم الذي لا يهدأ وشجارهم الذي لا ينتهي ومكبرات الصوت التي تعوي في حشرجة طوال اليوم وأجهزة الراديو التي تعمل بكامل طاقاتها، كل هذا يمتعني ويشعرني بأنني إنسان حي أشارك الناس انفعالهم وأطّلع على جميع أفكارهم وأسمع ما يسمعون، وهذه لذة ما بعدها لذة لا يحظى بها المساكين الذين شاء سوء طالعهم وفرض عليهم القدر القاسي أن يعيشوا في أحياء هادئة صامتة صمت القبور .

وعندما أطل من نافذة غرفتي أشعر وكأنني أشاهد سِركًا ومهرجانًا وعرضًا مسرحيًّا وفيلمًا سينمائيًا في وقت واحد، فهل توجد متعة أكثر من ذلك؟ إن هذا يوفر عليَّ المال الذي ينفقه المساكين التعساء الذين يرتادون هذه الملاهي، والجهد الذي يبذلونه للوصول إليها .

وعندما كنت موظفًا في الحكومة، لاحظ رؤسائي شرود فكري واهتمامي بقضايا كبرى فوق مستوى تفكيرهم فأحالوني إلى المعاش قبل الأوان، وحمدت الله على ذلك فلقد جنبني رؤية وجوههم الكريهة وعجرفتهم وأوامرهم ونواهيهم وتحكمهم في شخصي الضعيف. وعندما غادرت مقر عملي لآخر مرة شعرت وكأنني أُفرج عني من سجن لعين .

والمعاش الذي أتقاضاه، ولو أنه ضئيل، إلا أنه كاف لدفع إيجار غرفتي والحصول على طعامي الذي لا يرهق معدتي شديدة الحساسية ولا يمكن أن يسبب لي تخمة والعياذ بالله. وفي مقابل المبلغ الذي خُصم من مرتبي كسبت ما هو أثمن منه، أصبحت حرًا كسمكة في بحر أو كطائر طليق يحلّق بأجنحته كما يشاء ويهبط عندما يريد. كما أتاح لي الفرصة الذهبية التي طالما تُقت إليها وتمنيتها، وهي التفرغ التام للتفكر والتأمل، فأنا في معظم ساعات اليوم تجدني مستلقيًا على ظهري فوق حصيرتي محملقًا في سقف الغرفة مستغرقًا في تفكير عميق باحثًا عن وسيلة فعالة لمحو البؤس من الوجود وإشاعة السعادة بين جميع الناس .

هذه هي القضية الرئيسية التي تشغل فكري، وحتى هذه اللحظة لم أهتد إلى حل لهذه المشكلة يرضيني ويريح بالي، ولكنني واثق من التوصل إلى ذلك في يوم من الأيام، ولا يأس مع الحياة. وعدم اهتدائي إلى حل

حتى الآن من شأنه أن يعمل على تنشيط ذهني ويدفعني لمواصلة التفكير العميق في هذه القضية الحيوية التي أجد نفسي على الرغم مني دائم التفكير فيها. ومن العجيب أنني لا أجد شخصًا غيري يشغل باله بها. هل أنا الإنسان الوحيد الملقى على كتفيه عبء إسعاد البشر؟

أسمع الآن صراخ أشخاص يخرجون من باب العمارة، من لم يألفه قد يظنه صراخ عائلة تشيع ميتًا عزيزًا عليها وتخرجه من المنزل خروجه الأخير. ولكنني وقد اعتدت سماعه فإنني أعرف الحقيقة. إحدى العائلات التي تسكن هذا البيت في الطابق الذي فوق البدروم مباشرة، دائمة الصراخ. قد تكون ضجة المكان هي التي أكسبتهم هذه العادة. الأب يصرخ والأم تصرخ والأبناء يصرخون. كلامهم صراخ وهمسهم صراخ. بل لقد أسمع أحدهم يصرخ أحيانًا في ساعة متأخرة من الليل وأنا مستغرق في التأمل والتفكير، ويهذي بكلمات لا معنى لها فأستنتج من ذلك أنه يصرخ وهو نائم. ولذا فأنا أسمع كل كلمة تخرج من أفواههم في اليقظة والمنام على الرغم من الضجة المستمرة المنبعثة من الشوارع المجاورة. وأنا سعيد بهذا الصراخ، فهو يجنبني الشعور بالاغتراب، فأحس وكأنني أعيش معهم .

أراهم كل صيف خارجين من المنزل حاملين حقائب كبيرة وأخرى صغيرة. وأفهم من صراخهم أنهم

مسافرون إلى مدينة الإسكندرية لقضاء الصيف هناك. إنني أرثى لحالهم وأتعجب وأسأل نفسي: لماذا يعذب الناس أنفسهم ويبذلون هذا المجهود المضني وينفقون الأموال التي قد يكونون في حاجة إليها لمجرد الانتقال من مكان إلى مكان آخر بلا مبرر معقول ثم العودة بعد ذلك إلى مكانهم الأصلي؟ فأنا أقضي جميع فصول العام في هذا المكان الذي اعتدت الحياة فيه ولا أرضى به بديلًا ولم ينقص مني شيء أو يحدث لي أي ضرر، بينما يعود أفراد هذه العائلة البائسة بعد انقضاء الصيف وقد تقشرت بشرتهم ولفحت الشمس أجسادهم ليواصلوا صراخهم، مساكين، كان الله في عونهم .

والأعجب من ذلك، أن بعض الناس ينفقون مئات الجنيهات للسفر إلى الخارج لمشاهدة مدينة البندقية التي يقال إن مساكنها ومبانيها غارقة في المياه ويتحدثون عن جمالها في الأشعار والأغاني. ومن دواعي سعادتي أن الله جنبني هذا العناء، فأنا أعيش هنا وكأنني في مدينة البندقية دون حاجة إلى تكبد مشاق السفر ونفقاته. فالمجاري تغمر الشارع الذي أعيش فيه والشوارع المجاورة بشكل يكاد يكون مستديمًا. لقد أُلِفْت هذا المنظر الجميل وتكيفت مع رائحة المجاري فأصبحت أشعر بمتعة وأنا أستنشق عبيرها .

أما رائحة الورد والياسمين وأمثالها من الروائح الكريهة فلقد أصبحت تثير غثياني، وأحمد الله على عدم وجود أية حديقة بالقرب من منزلي حتى لا يحمل النسيم إلى أنفي، رغم أنفي، هذه الروائح. ومن يدري؟ ربما يصبح هذا الشارع الذي أعيش فيه والشوارع المجاورة مكانًا سياحيًا في يوم من الأيام، ويتهادى الجندول على صفحة مياهها في ضوء القمر. وربما يقيمون جسرًا علويًا مثل جسر التنهدات الذي بمدينة البندقية، ويفد السياح من جميع أنحاء العالم للفرجة عليه والتمتع بمنظره بعد أن تكون مدينة البندقية قد شاخت وتصدعت مبانيها. ويحضر أحد كبار المسؤولين عندنا لافتتاح جسر التنهدات الجديد هذا، ويقص الشريط، ثم يطلق فوقه أول تنهيدة، ومستعد أنا أن أواصل التنهدات فوقه في الليالي القمرية. لست أدري لماذا يخاطر الناس بحياتهم في القطارات والطائرات والبواخر للسفر إلى أماكن بعيدة؟ ألا يعلمون أن «السلامة في الإقامة» كما كانت تقول أمي التي لم تكن تغادر البيت خوفًا من أخطار الطريق، ولقيت مصرعها على أثر مشاجرة عنيفة نشبت بينها وبين أبي، رحمهما الله، بسبب ثلاثة قروش اعتقد أبي أن أمي أنفقتها بلا لزوم. اشتدت المشاجرة وعلا صراخهما .

- أنت مسرفة لا تؤتمنين على صيانة أموالي .

- بل أنت المتلاف، تبدد الفلوس في الجلوس على المقاهي لشرب الدخان المعسّل وتتركنا بلا طعام .

- إنها أموالي وأنا حر التصرف فيها. ولابد أن أقضي معظم الوقت مع أصدقائي لأستريح من رؤية وجهك الكئيب وصوتك الشبيه بنقيق الضفادع .

- أأنا كئيبة الوجه؟ إن وجهك أنت هو الكريه. إنه أبشع وجه رأيته في حياتي، ومنذ اليوم الأسود الذي تزوجتك فيه وأنا في هم وغم وكرب .

- أأنا بشع الوجه يا امرأة؟ هل تنظرين إلى غيري؟ هل تعجبك وجوه الرجال الآخرين يا فاجرة؟

كان بجوار أبي، لسوء الحظ، لمبة بترول تضيء الغرفة، لم يجد غيرها في متناول يده، قذف بها أمي فسال البترول على ملابسها واشتعلت فيها النار في لمح البصر. كنت صغير السن فلم أستطع أن أفعل شيئًا سوى البكاء. حاول أبي إطفاء النار، وصراخ أمي يذوب في ضجة الشارع. ظللت أبكي وجسدي يرتجف. ماتت أمي متأثرة بحروقها وزجوا بأبي في السجن ومات قبل أن يحين موعد الإفراج عنه. لم يمر هذا الحادث عبثًا دون الاستفادة منه، فلقد أخذت منه عبرة. قررت ألا أتزوج، إذ من يدري؟ ربما أتشاجر مع زوجتي أو تتشاجر هي معي، وتكون في هذه اللحظة بالقرب مني لمبة بترول أقذفها بها فتموت وأدخل السجن. وهكذا نَعِمْتُ

بالعزوبية وفزت بنعمة الحرية. فهل كان بوسعي أن أشعر بالسعادة والرفاهية وراحة البال التي أنعم بها الآن لو كنت تزوجت وأصبحت مسؤولًا عن زوجة وحفنة من الأولاد؟ إنني لا أحمل الآن سوى هم نفسي، وهذه نعمة كبرى من نعم الله العديدة التي غمرني بها .

وأشعر بأن الله يحبني ويرعاني، ما تمنيت شيئًا إلاّ ووجدته. اليوم مثلًا، هَفَت نفسي للفجل (الوِرْوِر) الذي يقولون إنه ناقص في السوق ولست أدري ما الذي دفعني للسير في حارة لم تطأها قدماي من قبل، إنه إلهام من الله. وعند منتصف الحارة لمحت الكنز الذي أبحث عنه. امرأة عجوز أمامها قفة مليئة بالفجل (الورور). سال لعابي. وجدت أمامها طابورًا فوقفت في نهايته، وانتهزت الفرصة فبدأت الحديث مع الرجل الواقف أمامي، ولكنه تجاهلني ولم يُعِرْ كلامي أي اهتمام. لم يؤلمني ذلك، فالشيء المهم في نظري هو أن أتكلم. خفت أن ينفد الفجل (الورور) قبل أن أصل إلى بائعته، ولكنني والحمد لله عندما جاء دوري وجدت الخير كثيرًا فاشتريت حزمة منه. وبينما أعبر الطريق ظلّت يدي قابضة على حزمة الفجل بكل قوتي خوفًا من أن يختطفها مني أحد النشالين المنتشرين في هذا المكان. فكان فكري في هذه اللحظة مشغولًا، كالعادة، بالقضايا الكبرى للبشرية، وعلى الأخص قضية السعادة وكيف أتمكن من إشاعتها بين جميع البشر وبينما أنا في ذروة التفكير وقمة التأمل، شعرت بسيارة تتوقف جنبي

بغتة ويطل منها رجل تدل تجاعيد وجهه على التعاسة التي أراها واضحة في وجوه جميع راكبي السيارات بسبب الاختناقات التي تصادفهم في الطريق والمخالفات والضرائب التي تنوء بحملها الجبال. صاح الرجل في غضب وانفعال شديد قائلًا لي :

- افتح عينيك يا حشرة .

مع أن عيني كانتا مفتوحتين على آخرهما ولا يمكنني أن أفتحهما أكثر من ذلك إذ إنني عندما أفكر تفكيرًا عميقًا تتسع عيناى ولا أدري لماذا. لم أغضب منه. وهل أغضب من شخص جاهل؟ فأنا لست حشرة بل أنا إنسان. ألا يعلم هذا الرجل أن الله خلق لجميع الحشرات ست أرجل وأنا ذو رجلين اثنتين فقط؟ فكيف يظنني حشرة؟ إنه جاهل لا يعرف الفرق بين الحشرة والإنسان. لقد أصبحت خبيرًا بالحشرات من طول عشرتي لها، وعندما ينتهي أجل أية حشرة في غرفتي، ولكل أجل كتاب، لابد أن أفحصها فحصًا دقيقًا وأعد أرجلها. أما العنكبوت فيُخيل إلي أنه ليس حشرة لأنني وجدت عدد أرجله أربعة أزواج لا ثلاثة أزواج. لقد رثيت لحال هذا الرجل. حاولت أن أنير ذهنه وأمحو جهله وأعلمه الفرق بين الإنسان والحشرة، ولكن سيارته َمرقَت وتاهت في زحام السيارات. مسكين، سيظل على جهله. ليس له في الطيب نصيب .

سرت في طريقي أقضم الفجل (الورور) محاولًا إبقاءه في فمي أطول مدة ممكنة لأشعر بلذة طعمه. الزحام في كل مكان. أين يذهب كل هؤلاء الناس في السيارات والتراموايات والأوتوبيسات وفوق الدراجات والموتوسيكلات وسيرًا على الأقدام وكأنهم في يوم الحشر؟ أنا سعيد بالزحام ولكنني أتساءل أحيانًا. لماذا كل هذا الزحام؟ لماذا كل هذا الكرّ والفر؟ هذه الأجسام المتصادمة مع بعضها على الأفاريز، المتسابقة على ركوب وسائل النقل التي لا موضع فيها لقدم، وهؤلاء الواقفون يصرخون كالمجانين :

- تاكسي.. تاكسي ..

يستجدون التاكسيات في مذلة ومهانة للوقوف لهم وسائقو التاكسيات لا يلتفتون إليهم ولا يعيرونهم أي اهتمام. لماذا كل هذا؟ لماذا يعذبون أنفسهم هذا العذاب؟ بغتة، رأيت جميع السيارات تتوقف وتفسح الطريق لمرور جنازة. كان النعش في المقدمة محمولًا على أكتاف أربعة رجال أشداء، وخلفه عدد هائل من المشيعين. وقفت أقرأ الفاتحة وأترحم على هذا الميت الذي لا أعرفه. قفزت في ذهني فكرة، لماذا لا أندس بين المشيعين عسى أن أجد شخصًا جنبي أتحدث معه؟ فأنا أتوق للحديث مع أي إنسان خوفًا من أن أنسى الكلام. سألت الرجل الذي بجواري :

- جنازة من هذا يا ترى؟

نظر إليَّ نظرة من تلك النظرات المريبة وأطال النظر ثم أشاح بوجهه عني فلم أسترسل في الحديث معه فهو لا يريد أن يتكلم واكتفيت بمتعة السير في صف واحد مع الناس. ثم انشغل فكري بالقضايا الكبرى للبشرية. ألا يُحمل الإنسانُ على الأعناق ويفسح له الطريق إلا بعد أن يموت؟ شعرت بالسعادة عندما تصورت أنني سأحمل على الأعناق في يوم من الأيام عندما أموت، لكنني لن أستطيع التحدث مع أحد. يخيل إليَّ أن هذا الرجل المحمول على الأعناق لم يعرف السعادة في حياته، شأنه في هذا شأن الذين يشيعونه. ولكن لن تدوم تعاسة الناس طويلًا فسوف أتوصل إن عاجلًا أو آجلًا إلى الوسيلة الفعالة التي أبحث عنها لإسعاد جميع بني آدم. أريد أن أرى جميع الناس سعداء مثلي، إذ لا يمكن أن يهنأ الإنسان بالسعادة وهو محوط بملايين التعساء. ورأيت بعين الخيال هذا الميت وهو مستلق على ظهره عاريًا فوق هذه الخشبة. لست أدري لماذا تذكرت بدلتي في هذه اللحظة فنظرت إليها. لا يوجد لديَّ من الملابس غير هذه البدلة فلا أرتدي سواها، وأنام بها أحيانًا. وأنا سعيد بذلك كل السعادة، إذ لا يتوه ذهني وتبدد طاقتي في اختيار الملابس وغسلها وكيها كما يفعل البائسون الذين ابتلاهم الله بكثرة الملابس. وعندما أرقد في قبري في يوم من الأيام فسوف أرقد عاريًا كما ولدتني أمي، مثل هذا الرجل. وسأترك بدلتي لشخص آخر قد يكون في حاجة إليها فأكون سببًا في إسعاد إنسان لم

تره عيناي، إذ من دواعي سعادتي أنني بلا أقارب ولا صحاب ولا معارف ولا عائلة يرثون بدلتي من بعدي فلا تشغلني مشكلاتهم وأحزانهم ولا أحزن لفراقهم. وربما بعد أن ينعم بارتداء بدلتي ذلك الشخص المجهول الذي ستكون من نصيبه، يسعده الحظ ويظفر بغرفتي ويعيش فيها سعيدًا منعمًا مثلي .

اختل توازن أحد حاملي النعش وتعثر وكاد النعش يسقط على الأرض. في هذه اللحظة صدرت مني دون أن أشعر ضحكة لا إرادية، ولست أدري ما الذي جعلني أضحك. لكزني الرجل السائر جنبي لكزةً قوية قائلًا :

- لماذا تضحك؟ أنسيت أنك تشيع ميتًا؟

شعرت برغبة في الاستمرار في الضحك وفقدت سيطرتي على نفسي. ثم اعترتني رجفة عندما دارت في ذهني فكرة غريبة. تصورت أن الميت سيقوم من رقدته ويصوِّب نحوي تلك النظرات الغريبة، فتسللت وتركت الجنازة واتجهت نحو منزلي .

في طريقي إلى غرفتي لاحظت شخصًا يحدث نفسه بصوت مسموع. قلت لنفسي: ها هو ذا رجل لا يجد من يتحدث معه فاضطر إلى الحديث مع نفسه، وأنا أيضًا لا أجد من يتحدث معي، فأسرعت نحوه لنتحدث معًا، لاحظت أنه يترنح في مشيته. قلت لنفسي: لا حول ولا

قوة إلا بالله. لقد مرض الرجل من طول الصمت. أقبلت نحوه. سندته حتى لا يسقط وسألته :

- ما بك؟ هل أنت مريض؟

- لا، لست مريضًا. أنا سكران .

- ولماذا تسكر؟

- لأشعرَ بالدوار. أريد أن أشعر بالدوار .

مسكين، ينفق عشرات الجنيهات ليشعر بالدوار الذي أشعر به أنا بشكل مستمر بالمجان. لم أخبره بذلك حتى لا يحسدني. عندما بدأت أشعر بالدوار منذ عامين تمنيت أن أُشفى منه، ولكنني أدعو الله الآن أن يديم هذه النعمة. لم أكن أعلم أن الدوار شيء يسعى الناس إليه وينفقون الأموال ليظفروا به. مساكين .

- سأوصلك إلى منزلك، إذ لا تستطيع الوصول إليه وحدك وأنت بهذه الحال .

- نسيت مكان منزلي .

أسفت لذلك، إذ لو كان لا يتذكّر مكان منزله فكيف أعرفه أنا؟ أوصلته إلى مكان شبه منعزل وأجلسته وطلبت منه ألا يغادر المكان إلا بعد أن يتذكر مكان منزله وسرت متجهًا نحو غرفتي. سمعته يبكي، رق له قلبي فرجعت إليه .

- لماذا تبكي؟

- أنا حزين .

- وما سبب هذا الحزن؟

- ابني مريض .

- ولكن بكاءك لن يشفيه .

- اشتريت له أدوية كثيرة وفحصه عدد من الأطباء. وقال لي أحدهم وفر فلوسك فمرض ابنك لا يرجى له شفاء .

- قم واذهب إلى ابنك لتطمئن عليه. هل تذكرت الآن مكان بيتك؟

- تذكرته وليتني ما تذكرته .

- لماذا؟

- لا أستطيع رؤية ابني وهو يتعذب، وزوجتي التي تعذبني .

سرت مرة أخرى نحو غرفتي وبكاء الرجل ما زال يرن في أذني. ما أكثر شقاء البشر. حمدت الله على عدم زواجي حتى لا أرتبط بأولاد أتعذب من أجلهم. ليتني أستطيع محو البؤس والعذاب من الوجود .

وصلت إلى غرفتي فاستلقيت على ظهري فوق الحصيرة، ورفعت ركبتي إلى أعلى ثم وضعت ساقي اليمنى فوق ركبة ساقي اليسرى، وهو وضع مريح للغاية، وسبحت في تأملاتي. كيف يستطيع العنكبوت نسج هذه الخيوط الدقيقة بهذا الشكل الرائع مع أنه لم يدخل المدرسة. من علَّمه هذا؟ يحلو لي من آن لآخر أن أمتع نظري بنسيج العنكبوت المنتشر في أركان غرفتي. عند الموت يتساوى الإنسان مع العنكبوت. كل كائن حي يعيش فترة ثم يموت، والموت يساوي بين الجميع، يصبح الإنسان كالعنكبوت والذبابة والصرصار. ولكن ما هذا؟ عيون العنكبوت مصوَّبة نحوي. أجل. إنني أرى بريق عيونه. إنه ينظر إليَّ. لماذا ينظر إليَّ هذا العنكبوت اللعين؟

رأيت منذ أسبوعين حلمًا عجيبًا. رأيت أنني أسير في شارع مزدحم كالعادة ولكنني لا أرى من الناس سوى عيونهم. عيون كثيرة مصوبة نحوي. ثم رأيت العيون تصبح رؤوسًا، والرؤوس تصبح أجسامًا، وجميع العيون ناظرة نحوي وأنا واقف فوق مكان مرتفع يشبه المكان الذي يقف فيه عسكري المرور عند تقاطع الشوارع المهمة. شعرت بفزع شديد من العيون الناظرة إلي. بدأت ألقي على هذه الجماهير خطابًا أشرح فيه وسائل السعادة، ولكنني اكتشفت أنني أحرك شفتي دون أن يخرج من فمي أي صوت. ازداد خوفي من العيون فبدأت أرتجف. هبطت من فوق المكان المرتفع وانطلقت

أعدو بكل ما أوتيت من سرعة والجماهير تطاردني صائحة صيحات مرعبة. انقضوا عليَّ جميعًا وأمسكوني من سترتي وطوحوا بي، فسقطت جالسًا في بئر عميقة في قاعها قليل من الماء، لا أرى حولي سوى جدران مرتفعة. أخذت أصرخ ولكنني كنت كمن يصرخ في صحراء. بدأ الماء الذي في قاع البئر يعلو شيئًا فشيئًا، فوقفت وواصلت صراخي واستغاثتي. ولحسن حظي صحوت من نومي في هذه اللحظة قبل أن يصل الماء إلى فمي وأنفي. لست أدري، ما تفسير هذا الحلم؟ سأذهب إلى دار الكتب للبحث عن كتاب تفسير الأحلام، فلقد تكرر هذا الحلم عدة مرات وأخشى أن أنام فأراه مرة أخرى .

أشعلت لمبة البترول ووضعتها على الرف في ركن غرفتي ثم عدت إلى مكانى وظللت أفكر وأنا مستلق على ظهري. لقد وهبني الله كل أسباب السعادة، ولكن الشيء الغريب الذي لم أستطع التوصل إلى تفسيره تفسيرًا مقنعًا، هو أنني على الرغم من كل أسباب السعادة التي أنعم بها، فإنني أشعر أحيانًا بذلك الحزن الدفين الذي يتحرك في سراديب أعماقي، وتذرف عيناي في تلك اللحظات قطرات من الدموع التي لا أعرف لها سببًا. إنها تسيل على خدي فأمسحها بطرف إصبعي. ما سبب هذا الحزن الدفين وهذه الدموع؟ هذا هو الشيء الذي يحيرني. هل هو الجحود؟ أخشى أن أكون جاحدًا لنعمة الله الذي رعاني وهيأ لي كل هذه

السعادة والرفاهية، إذ ماذا أطمع في أكثر من ذلك؟ هذه الأفكار تحرمني من النوم في بعض الليالي، فأظل ساهرًا حتى الصباح منبطحًا على ظهري محملقًا في سقف غرفتي مرهقًا ذهني لمعرفة سبب هذه الدموع التي تسيل من عيني بين آن وآخر، ولكنني واثق من التوصل إلى حل هذا اللغز المحير بمواصلة التأمل والتفكر العميق .

شيء آخر يحيرني، إنه نظرات الناس نحوي عندما أسير في الطريق. نظرات تثير الريبة وتبلبل أفكاري، مع أن مظهري ليس فيه شيء شاذ عن المألوف. حتى أصحاب السيارات الفارهة أراهم في كثير من الأحيان يحدجونني بنظرات لا أرتاح لها، ويطيلون النظر إليَّ. لا أعتقد أن هذه النظرات ذات علاقة بأن إحدى رجلي سروالي أقصر من الرجل الأخرى، فلقد بُليت الرجل اليسرى لسروالي عند ركبتي، فقطعت الجزء البالي ووصلت الطرفين ببعضهما فبدت رجل السروال هذه أقصر من الأخرى، وهذا شيء تافه لا يستحق كل هذه النظرات الغريبة. كما أن نظراتهم لا يمكن أن تكون بسبب الرقع ذات الألوان الجذابة المتوافقة التي في سترتي، فلقد أصبحت جزءًا من كياني وشخصيتي، وأنا أحب أن تكون لي شخصية متميزة، أنا شخصيًّا لا أجد فيها ما يلفت الأنظار .

فكرت كثيرًا في هذا الموضوع. كنت أبيت الليالي ساهرًا حتى الصباح محملقًا في الصرصار الأليف الكامن في ركن سقف غرفتي، ولكنني لم أكن أفكر في الصرصار ولا في بقائه عدة أيام في مكانه الذي لا يغادره على الرغم من عدم تناوله أي طعام، أجل، لم أكن أفكر في هذا الصرصار ولا في الخنفساء الوديعة القابعة في الركن الأيسر من الغرفة، ولكنني كنت أفكر في سبب نظرات الناس المصوبة دائمًا نحوي أينما سرت .

وفي ليلة مفترجة، في لحظة إلهام توصلتُ إلى معرفة سبب هذه النظرات الشريرة التي تكاد تنفذ إلى أعماقي.. إنه الحقد. الحقد الأسود .

عام 1981

فراشة تحلم !

منذ زمن بعيد، بعيد جدًا، منذ ملايين السنين، قبل أن يوجد الإنسان على سطح هذه الأرض، لم يكن يعمِّر الدنيا سوى فراشات وطيور وحيوانات متعددة الأشكال والألوان .

في ليلة من ليالي الخريف في ذلك العهد البعيد، والنسيم يهز غصون الأشجار فتتناثر أوراقها، كانت فراشة جميلة نائمة فوق غصن صغير، وفي نومها رأت حُلمًا، فاستيقظت وأجنحتها ترتجف من هول ما رأت .

بدأ نور الفجر يطل من خلال أشجار الغابة، فطارت الفراشة وأخذت تهيم على غير هدى، ولما أضناها التعب واستقرت فوق غصن شجرة من أشجار الصنوبر وأجهشت بالبكاء. رأتها عصفورة، فتركت عشها ورفرفت بجناحيها وهبطت بجوار الفراشة. نظرت إليها بحنان وسألتها :

- لم تبكين؟

قالت الفراشة :

- رأيت في منامي حلمًا روّعني .

- وما هو هذا الحلم أيتها العزيزة الصغيرة؟

- رأيت أنني طائرة أبحث عن حبيبي بين الأشجار وأغني له أغنية جميلة .

- ماذا كنت تغنين؟

- كنت أغني أغنية الشوق الحزين .

- أنا لا أعرف هذه الأغنية، هل من الممكن أن أسمع كلماتها؟

- أجل، تقول كلماتها :

يا حبيبي أقبلَ الفجرُ وغنَّى العندليبْ

والندى قد عانق الأزهار والغصنَ الرطيبْ

ها هي الأطيارُ غَنَّتْ فَرْحَةً

ها هي الأزهار مالت نَشْوَةً

وأنا وحدي أقاسي لَوْعَةً

وأنادي: يا حبيبي، وحبيبي لا يجيبْ

لا أدري في الروض حسنًا إن يغبْ عنّي الحبيب

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بينما أنا أشدو بأغنيتي، وجدت نفسي بغتة داخل شيء لم أتمكن من الخروج منه. نظرت مرتاعة فوجدت

هذا الشيء مثبتًا في عصا طويلة يحملها مخلوق غريب لم أر له مثيلًا من قبل، يسير منتصبًا على ساقين اثنتين، ويغطي جسده بشيء عجيب لا أعرفه ويضع على رأسه شيئًا غريبًا. أخذت أبكي وأستعطفه وقلت له: «من أنت وما الذي تريده مني؟» فقال لي: «لا شأن لك بي»، قلت: «كيف تقول هذا وقد أصبح مصيري بين يديك؟! لقد روّعتني وسلبتني حريتي»، فقال: «ستعرفين كل شيء عندما أصل إلى معملي ».

- معمله؟! ما معنى هذه الكلمة؟

- لست أدري. استحلفته بكل عزيز لديه ألاَّ يؤذيني، فقال: «يكفيك فخرًا أنك ستموتين شهيدة!»، فقلت له والرعب يملأ قلبي: «أموت شهيدة؟ شهيدة ماذا؟». فقال: «شهيدة العلم!» فلم أفهم شيئًا .

- ولا أنا .

- أنا أحكي لك ما سمعته منه ولو أنني لا أفهم معناه .

- ثم ماذا؟

- قلت له: «هل يعني هذا أن حياتي في خطر؟» قال: «أجل». قلت له: «ومن الذي سيسلبني الحياة؟» قال: «أنا». قلت: «وهل يُقتل من لم يرتكب إثمًا؟». قال: «أليست هذه شريعة الغابة، يقتل القويُّ الضعيف؟ » قلت: «في الغابة لا يقتل القويُّ الضعيفَ إلا إذا جاع».

قال: «أو إذا ظمئ !» قلت: «إذا كنت ظمآنَ فليس لديّ ما يروي ظمأك، فما أنا إلا فراشة ضعيفة مسكينة ضئيلة الحجم لا أرد جوعًا ولا أطفئ ظمًا. أمامك البحيرات الواسعة والينابيع الصافية فاذهب وارتو منها كما تشاء وامنحني حريتي التي سلبتها مني، فالحرية أغلى ما في الوجود». فقال: «إن ظمئي ليس للماء بل للمعرفة، وأنت ستروين ظمئي». فلم أفهم شيئًا وقلت له: «وما هي هذه المعرفة؟ إنني لا أعلم عنها شيئًا. كيف أروي ظمأك من شيء لا أملكه؟!». فنظر إليّ بازدراء وقال: «قد ينبع الماء من الصخر!». قلت له: «وألا يُروى ظمؤك هذا إلا إذا قتلتني؟». قال: «أجل، لابد من ذلك بكل أسف، ولكنني قبل أن أقتلك سأحتفظ بك عندي في معملي فترة من الزمن لمعرفة كل شيء عنك: كيف تأكلين، كيف تطيرين، كيف تتناسلين!»، فصحت قائلة وقد استبد بي الفزع: «مستحيل، مستحيل. كيف تجرؤ على ذلك وكيف تستبيح لنفسك أن تطَّلع على أسراري؟!» فاستمر يقول وكأنه يجد لذة في تعذيبي: «ثم أقتلك بعد ذلك، وأفتح بطنك وأخرج أمعاءك لتقطيعها إلى شرائح رقيقة لدراسة أنسجتها وخلاياها، كما أنني سوف أدرس تركيب رأسك وأرجلك وأجنحتك»، فلم أفهم كلمة واحدة مما قال وقلت له: «وما الفائدة التي ستعود عليك من كل هذا؟». قال: «هذا ما نسميه العلم، والمعرفة». فبكيت كثيرًا وأخذت أستعطفه قائلة: «أستحلفك بكل عزيز لديك ألا تقتلني

فإنني أحب الحياة». فقال: «كل مخلوق على ظهر الأرض يحب الحياة، ولكن الموت هو مصير كل حي». فبكيت وقلت له: «لم أكن أعلم ذلك. كنت أظن أنني لن أموت أبدًا». فرمقني بنظرة احتقار وقال: «لأنك جاهلة. وهذا هو الفرق بيننا وبين أمثالكم من الحيوانات، تظنون أنكم ستعيشون إلى الأبد بينما نحن نعلم أن الموت هو المصير المحتوم». وقال كلامًا كثيرًا لم أفقه شيئًا منه، ثم قال: «ألا تعلمين أيتها الجاهلة أن لك اسمًا لا تعرفينه؟». فقلت له في دهشة: «أنا لي اسم لا أعرفه؟! وما هو هذا الاسم؟». فذكر لي اسمًا طويلًا قبيحًا لم تستطع ذاكرتي الاحتفاظ به، فبكيت وقلت له : «أنا التي يقولون عني إنني أجمل من بالغابة تطلقون عليّ هذا الاسم القبيح؟ وبأي حق تسمونني بهذا الاسم البغيض بدون علمي؟ !» فقال : «ومن منا له حق اختيار اسمه؟ إننا جميعًا نخرج إلى الحياة فنجد أنفسنا نحمل أسماء لم يستشرنا فيها أحد ».

وفي هذه اللحظة أيتها العصفورة العزيزة هبت عاصفة عاتية، فزمجرت الرياح وقصف الرعد، ووجدت نفسي خارج ذلك الشيء الذي كنت حبيسة بداخله وحملتني الرياح بعيدًا عن ذلك المخلوق العجيب. عند ذلك صحوت من النوم خائفة أرتعد. أليس هذا حلمًا مزعجًا تقشعرُّ منه الأبدان؟

قالت العصفورة :

- لم أر في حياتي حلمًا مفزعًا كحلمك هذا، ولكنه على أية حال مجرد حلم مضى وانقضى، فلا تخافي ولا تحزني أيتها الفراشة الوديعة .

قالت الفراشة وأجنحتها لا تزال ترتجف رعبًا :

- أخشى أن يكون نذيرًا بشرٍ رهيب يوشك أن يعصف بالغابة .

قالت العصفورة وقد بدأ الرعب يتسلل إلى قلبها :

- وما العمل؟ كيف نتقي هذا الشر؟

- لست أدري. إنني في حيرة من أمري. يخيل إلي أن مخلوقًا غريبًا لا عهد لنا به سيهبط علينا هنا يهدد أمننا ويجلب لنا الشقاء .

- إذا كان الأمر كذلك فلابد أن نتعاون معًا ونعد العدة لمقاومة هذا المخلوق الشرير عندما يجيء .

- وماذا نفعل؟

- لي من أصدقائي غراب عهدت فيه الحكمة ورجاحة العقل .

- هيا نخف إليه نسأله المعونة .

طارت الفراشة في صحبة العصفورة ووصلتا إلى ذلك الغراب .

قالت العصفورة للغراب :

- لقد رأت الفراشة في منامها حلمًا مزعجًا، ونخشى أن يكون نذيرًا بشرٍ عظيم .

- وما هو هذا الحلم يا عزيزتي الفراشة؟

قصت الفراشة حلمها عليه فشعر الغراب بشيء من الخوف وقال: - حلم عجيب !

قالت الفراشة :

- بل حلم رهيب. إنه ينبئ بأن مخلوقًا غريبًا سيهبط علينا ليعذبنا ويقتلنا وينشر بيننا الحزن والفزع .

قال الغراب :

- ولماذا يقتلنا بدون ذنب؟

قالت الفراشة :

- ليعرف ما بداخل أجسادنا !

ضحك الغراب وقال :

- يقتلنا ليعرف ما بداخل أجسادنا؟ !

قالت الفراشة :

- سيفعل ذلك في سبيل شيء اسمه المعرفة، هكذا قال لي .

قال الغراب بدهشة :

- المعرفة؟! وما هي هذه المعرفة؟ معرفة ماذا؟

قالت الفراشة :

- معرفة كل شيء .

قال الغراب :

- لم أسمع عنها من قبل. قد تكون نوعًا من الجنون! قفزت العصفورة قفزتين ثم قالت :

- جئنا نستشيرك لما نعهده فيك من حكمة ورجاحة عقل.. قال الغراب بزهو وخيلاء :

- إذا كان الأمر كذلك فلابد أن أكون عند حسن ظنكما. لقد خطرت لي فكرة .

قالت الفراشة بلهفة :

- ما هي هذه الفكرة؟

- إن صوتي كما تعلمين هو أعلى الأصوات في الغابة .

قالت الفراشة وقد شعرت بخيبة أمل :

- وماذا سنصنع بصوتك؟ إننا في حاجة إلى عقلك وفكرك لا إلى صوتك .

- لا تتسرعي يا فراشة، انتظري حتى أكمل حديثي .

- أكمل حديثك .

- سأصعد فوق أعلى شجرة بالغابة حتى إذا أبصرت هذا المخلوق العجيب قادمًا نحونا أنطلق ناعقًا بصوت جهوري متقطع وبنبرات واضحة معلنًا قدوم الخطر فأمنحكما أنتما وغيركما من الحيوانات فرصة الاختباء، حتى إذا زال الخطر وابتعد عنا انطلقت أنعق بصوت مستمر لتعودوا إلى حياتكم الطبيعية .

قالت الفراشة بحماس :

- فكرة رائعة. إننا لا نطمع في أكثر من ذلك .

قال الغراب :

- وسأذهب إلى صديقي الأرنب وأقص عليه القصة وأطلب منه أن يتولى هو وجميع أرانب الغابة مهمة حفر أنفاق تختبئ فيها الحيوانات التي لا تستطيع الطيران أو تسلق الأشجار عندما أعلن قدوم الخطر .

طار الغراب إلى الأرنب وقص عليه الحلم وطلب منه أن يتعاون هو وبقية الأرانب لحفر الأنفاق، فأبدى الأرنب استعداده هو وزملاؤه للقيام بهذه المهمة. وفي خلال أيام قلائل كانت الأنفاق قد تم حفرها في جميع أنحاء الغابة في سرعة مذهلة ومهارة فائقة .

وفي عصر يوم من الأيام انطلق الغراب ينعق معلنًا قدوم الخطر، فأسرعت الحيوانات التي لا تستطيع الطيران واختبأت في الأنفاق، وطارت الحيوانات القادرة على الطيران، وتسلقت الأشجار من تستطيع تسلقها، وبقي الغراب قابعًا بأعلى الشجرة، وساد السكون في جميع أنحاء الغابة. وبعد فترة من الزمن أعلن الغراب زوال الخطر .

ظل الخوف والقلق والاضطراب مسيطرًا على كل من بالغابة من الحيوانات، إذ كلما لاح خيال شجرة تتمايل أو ظل سحابة عابرة، ظن الغراب أنها ذلك المخلوق الغريب فينطلق ناعقًا معلنًا الخطر، فتسرع الحيوانات إلى الاختباء والخوف يكاد يمزق قلوبها. وأخيرًا ذهبت الفراشة إلى صديقها الهدهد وقالت :

- لقد سئمت تلك الحال. لم تعد أعصابي تحتمل أكثر من ذلك، فلقد أصبحت أرتعد من سماع كل صوت يشبه صوت الغراب، وعندما أسمع نعيقه يخيّل إليَّ أن قلبي سيقفز من جسدي، وإذا دامت تلك الحال طويلًا فسأموت من الخوف قبل أن يقتلني المخلوق الغريب.

إن حفيف الأشجار يزعجني فما بالك بنعيق الغراب الذي يعلن قدوم الخطر؟

قال الهدهد :

- ليتني أستطيع تخفيف آلامك أيتها الفراشة الرقيقة، إن أسرع المخلوقات إلى الخوف من مثل هذه الأشياء هم أصحاب الشعور المرهف والإحساس الرقيق أمثالك .

قالت الفراشة :

- سمعت عن عرَّافة تقيم في مكان بعيد منعزل، فلماذا لا نذهب إليها نسألها عما يخبئه القدر لنا حتى نستريح من عناء القلق والانتظار؟

قال الهدهد :

- أعرف تلك العرافة. إنها جرادة عرجاء تعيش تحت شجرة سرخس بالقرب من حفرة ماء سحرية .

طارت الفراشة بصحبة الهدهد ووصلا إلى الجرادة العرافة، فاستقبلتهما وهى تتوكأ على عصا وقالت الفراشة لها :

- صباح الورد يا عرَّافة .

قالت الجرادة :

- صباح الياسمين أيتها الفراشة .

قال الهدهد :

- جئنا إليك نسألك ...

فلم تتركه الجرادة يتم حديثه. بل قاطعته قائلة :

- أنا أعرف لماذا جئتما، فالعرافة ينبغي لها أن تقرأ ما في الصدور قبل أن يفصح عنه اللسان، أنتما تريدان السؤال عن هذا المخلوق الغريب الذي رأته الفراشة في منامها. قال الهدهد :

- إذن خبرينا ماذا يخبئه لنا القدر، ومن هو ذلك المخلوق العجيب فلقد أصبحنا في هم وكرب عظيم، نبيت في رعب ونصحو في فزع خوفًا من قدومه في أية لحظة من لحظات النهار أو الليل. لقد أفسد الخوف حياتنا، فأصبحت الحياة مرة المذاق .

قالت الجرادة :

- هيا معي إلى حفرة الماء السحرية. سأريكما كل شيء .

وصل الثلاثة إلى حفرة الماء السحرية، ووقفت الجرادة على حافتها متوكئة على عصاها، بينما اشرأب الهدهد بعنقه إلى تلك الحفرة وأسرعت دقات قلب الفراشة .

قالت الجرادة :

- انظرا إلى هذا الماء الصافي. بعد لحظات ستريان فيه كل شيء .

ثم أخذت الجرادة تصيح قائلة :

- بحق هذا الصباح، هبِّي أيتها الرياح. أيتها الصواعق احضري. أيتها الرعود زمجري، ويا أسرار الغد المجهول زلزلي الجبال واظهري، هنا في حفرتي السحرية، هنا في حفرتي السحرية .

التصقت الفراشة بالهدهد في هلع شديد وعيناها مثبتتان في الحفرة السحرية، وهبت الرياح وزمجر الرعد ولمع البرق. قالت الجرادة :

- انظرا إلى الماء، أتريان هذا؟

رأت الفراشة في حفرة الماء السحرية مخلوقًا فصاحت قائلة في رعب :

- إنه هو. إنه يشبه الذي رأيته في المنام .

قالت الجرادة :

- هذا هو المخلوق العجيب. إنه قادم من بعيد.. قادم من بعيد .

قالت الفراشة وهي لا تزال ترتجف :

- وما اسم هذا المخلوق؟

قالت الجرادة :

- إنه الإنسان، أحد بني البشر، قادم إلينا من بعيد .

قالت الفراشة وقد عجزت عن فهم ما قالته الجرادة :

- أحد بني البشر؟! ومتى سيأتي هنا؟

قالت الجرادة :

- لن يظهر على سطح الأرض إلا بعد ملايين السنين، فلا تخافا ولا تحزنا إذ لا داعي للخوف قبل الأوان. ملايين السنين تفصله عنا .

قال الهدهد :

- وهل هو أفضل منا؟

قالت الجرادة :

- سيمتاز عنا بالذكاء والعلم .

قال الهدهد :

- إذن فسيكون أسعد منا .

- كلا، إن عقله سوف يشقيه .

قال الهدهد بدهشة :

- عقله يشقيه؟! كيف؟

- قد يُشقي العقل صاحبه ويكون علمه سبب هلاكه !

- وهل يكون العلم سببًا للهلاك؟ !

أشارت الجرادة إلى حفرة الماء السحرية قائلة للهدهد :

- انظر، إن ذلك الجنس البشري سيسود الدنيا بعلمه. ها هو ذا أمامكما في حفرة الماء السحرية يطير كما يطير الطير، ويغوص كما يغوص السمك، ويصل إلى الكواكب ويرصد أبعاد النجوم، وينتقل من مكان إلى آخر في غمضة عين، وسوف يتمتع البعض منه بالمسكن الفاخر والطعام الطيب، ولكن الملايين ستظل فريسة الفقر والتعاسة، وبدلًا من أن يستخدم علمه وذكاءه لإسعاد بني جنسه، فإنني أراه هنا يحيد عن طريق الخير والصواب فيصبح علمه وبالًا عليه، ويجعل منه أداة للقتل والدمار .

قالت الفراشة :

- وكيف يصبح العلم أداةً للدمار؟

قالت الجرادة :

- إذا سيطر الأشرار على العلماء .

- وهل سيظل هؤلاء البشر على ظهر الأرض طويلًا؟

- كلا، لن يصغوا إلى حكمة الحكماء منهم، فينتصر الشر على الخير، ولذا فهم هالكون لا محالة .

قال الهدهد :

- وهل يتغلب الشر على الخير؟

قالت الجرادة :

- يتغلب الشر لو ملك القوة، ويمتلك القوة لو ملك القنبلة .

قالت الفراشة :

- وما هي هذه القنبلة؟

قالت الجرادة :

- أداة رهيبة من أدوات الدمار سيتفتق عنها ذهن البشر. إنها الشر في صندوق. دمارها أقوى من الزلزال، وأبشع مما تفعله البراكين. زمجرتها أعلى من زمجرة أعتى العواصف. ينطلق منها الشر فيحصد الملايين .

قال الهدهد :

- وهل من الممكن أن تريني في حفرة الماء السحرية إحدى هذه القنابل؟

قالت الجرادة :

- انظرا. ها هي ذي الدنيا أمامكما في حفرة الماء كما ستكون بعد ملايين السنين، عندما يمتلكها البشر .

قالت الفراشة مبهورة :

- إنها دنيا جميلة، أجمل من دنيانا. ما هذه الأشياء العجيبة التي أراها فيها؟

قالت الجرادة :

- أشياء تطير، وأشياء تسير، ومبان شاهقة، ومعاهد للعلم والمعرفة .

قالت الفراشة وهي لا تزال مبهورة بجمال لا تراه :

- هل كل هذا الجمال من صنع هؤلاء البشر؟

قالت الجرادة :

- أجل، وسأريكما الآن شيئًا آخر من صنع البشر. انظرا كيف يدمر الإنسان كل ما صنعت يداه. ستريان هذا في الحفرة السحرية .

انبعث من الحفرة السحرية صوت انفجار رهيب جعل الفراشة والهدهد يرتعدان، وطارت جميع الطيور وأسرعت الحيوانات الأخرى إلى الأنفاق، واحتبس صوت الغراب في حلقه فلم يستطع النعيق، وصاحت الفراشة قائلة في فزع :

- ما هذا؟ ما هذا الصوت الرهيب؟

قالت الجرادة :

- إنه صوت انفجار إحدى القنابل الرهيبة. أرأيتما كيف يدمر الإنسان في لحظة كل ما صنعه في أجيال؟ !

ونظرتا إلى الحفرة. لقد اختفت المباني الشاهقة وتقوضت دور العلم، وانبعث من حفرة الماء السحرية صوت بكاء وصراخ وكأنه رجع الصدى. قالت الفراشة مرعوبة :

- ما هذه الأصوات الغريبة؟

قالت الجرادة :

- إنه صوت الشقاء الذي سيعصف بالبشر .

قال الهدهد :

- كيف يقضي هذا المخلوق بيديه على كل هذا الجمال، ويجلب لنفسه كل هذا الشقاء؟ !

قالت الجرادة :

- إنه سيدمر نفسه .

ارتعدت الفراشة والتصقت بالجرادة قائلة :

- أنا خائفة. خائفة من هذا الإنسان .

قالت الجرادة بهدوء :

- ولم تخافين؟ إن ما رأته عيناك في حفرة الماء السحرية لن يحدث إلا بعد ملايين السنين، عندما يظهر الإنسان على سطح الأرض. وعندما يظهر سيكون هو المخلوق الوحيد الذي يتفنن في ابتكار طرق جهنمية لتعذيب بني جنسه حتى يزول الوجود، ولن يبقى في النهاية على ظهر الأرض سوانا نحن الحيوانات، وتعود الدنيا كما هي الآن، خالية من هذا الإنسان .

صاحت الفراشة في فزع :

- انظرا، قرد في أعلى الشجرة كان يسترق السمع لحديثنا. لقد قفز الآن وتوارى خلف الأغصان .

انبعث من خلف الأغصان صوت القرد يضحك. قالت الفراشة :

- علام يضحك هذا القرد؟

قالت الجرادة :

- حذار من القرد .

قالت الفراشة :

- ولماذا تحذرينني من القرد؟

قالت الجرادة :

- أنا لا أحب القردة. إنها أقرب الحيوانات شبهًا بالإنسان

.

*

جماعة من المساكين

المساء. في منزل الشيخ درويش ضجة غير عادية سببها ذلك المخلوق الآدمي الصغير الذي هبط إلى الوجود في تلك الليلة .

الغرفة خافتة الضوء، فلقد تآكلت ذبالة المصباح ونضب بتروله فخرج المخلوق الجديد من ظلمة إلى ظلمة. وبعد مداولة قصيرة أرغموه بدون علمه وبدون أخذ رأيه أن يحمل طوال حياته اسم «متولي ».

ولقد وُجد متولي هذا في هذه الدنيا نتيجة خطأ غير مقصود دون أن يكون له ذنب في ذلك، إذ كانت رغبة أبيه «درويش» أن يتزوج من فاطمة شقيقة زوجته الحالية والتي تقاربها في السن، ولكن المرأة التي كُلفت بالخطبة أخطأت وظنت أنه يود خطبة خديجة فخطبتها له، وعندما علم درويش بذلك لم يعارض، أليست أنثى كأختها لها فم كفم البشر وأنف كأنوفهم وعينان كعيونهم؟ أما كون هذا الأنف كبيرًا أو العينين ضيقتين أو أن الفم قبيح فهذه كماليات في نظره لا تستحق اهتمامًا كبيرًا .

ودرويش رجل صالح يعمل لآخرته كأنه يموت غدًا، وهو على حق في ذلك، فمن دفعه سوء الطالع إلى الحياة في قرية كقريته يجب عليه أن يتوقع الموت في أية لحظة،

فهو إن لم يمت من البلهارسيا فسيقضي عليه بعوض الملاريا، وإن لم يكن من هذا ولا ذاك فمن سوء التغذية أو التيفويد .

والقرية مجموعة من الأكواخ القذرة المبنية بالطين، تحصر بينها أزقة ضيقة ملتوية، وترتفع أرض تلك الأزقة فجأة ثم تنخفض تبعًا لوجود أو عدم وجود تل من القاذورات أمام المنزل .

إذا سرت في أحد تلك الأزقة ونظرت إلى أبواب الأكواخ، أطلت منها رؤوس كائنات نصف حية شاحبة اللون ثم توارت في الظلام المنتشر داخل هذه الكهوف. تلك الوجوه الشاحبة وجوه مخلوقات آدمية، هم جماعة من المساكين تتكون من مجموعهم سكان تلك القرية، أما حمرة وجوههم فلقد ذابت في بولهم الممتلئ دمًا وبلهارسيا، طعامهم المكون من خبز الذرة و«المش» يشاركهم فيه الدود الذي استوطن أمعاءَهم .

والقرية تحد شمالًا بالمقابر الجاثمة في تلك الناحية فاغرة فاها تبتلع من آنٍ لآخر عددًا من سكانها الذين تلفظهم الحياة بعد كفاح مرير، وتُحد جنوبًا وشرقًا وغربًا بمستنقع كبير وجد في هذا المكان ليُضمن به عدم انقراض البعوض من العالم، ويورد إلى جيرانه المقابر أكبر عدد من الضحايا .

أما منزل درويش فهو كوخ منعزل غرست أمامه شجرة توت تحتها مصطبة تقوم مقام غرفة الاستقبال، اعتاد درويش أن يجلس عليها يتسامر مع بعض أهل القرية وينام فوقها أحيانًا وقت الظهيرة .

نشأ متولي بين أحضان تلك القرية واعتادت عيناه مناظر البؤس والفاقة، وهي الشيء الوحيد الذي وزع بالعدل على أهل القرية جميعًا. فلا ماء يصلح للشرب ولا نور ولا مدارس ولا شوارع نظيفة. وعندما بلغ السابعة من عمره أرسله والده إلى كتاب الشيخ عبد الله حيث تعلم أن أبناء النبي سبعة، ثلاثة ذكور وأربع إناث، الذكور سيدنا عبد الله وسيدنا إبراهيم وسيدنا القاسم أما الإناث فكان دائمًا ينساهن، وكان هذا كل ما تعلمه في الشهور الثلاثة الأولى .

أتم متولي عامه الأول في كتاب الشيخ عبد الله، ترى هل يستمر في هذا الكتاب؟ إن والده درويش يملك من مساحة الكرة الأرضية نصف فدان، فهو في نظر معظم أهل القرية من الأثرياء. ولما كان الشيخ درويش يمتلك نصف فدان فلقد فكر في أمر ابنه متولي، لماذا لا يرسله إلى مدرسة المدينة فيصبح أفنديًا يضع الطربوش على رأسه، كما يضعه المحضر الذي حضر منذ أسبوعين للحجز على جاموسة إسماعيل عبد الدايم لعجزه عن دفع الإيجار؟

لم ينم متولي في تلك الليلة، غدًا سيذهب إلى المدرسة الابتدائية الأميرية التي بالمدينة المجاورة والتي تبعد عن القرية بمقدار ساعة سيرًا على قدمي متولي، وسيضع على رأسه الطربوش وتصرف له كتب وأدوات جديدة. كانت تلك الليلة أطول وأسعد ليلة مرت على متولي .

قبل أن ينادي المؤذن «الصلاة خير من النوم» وقبل أن يهرع درويش إلى الجامع كان متولي يتحسس طريقه نحو المضخة ليغسل وجهه ويلبس بدلته الجديدة التي اشتراها له أبوه بعد أن باع كل القمح الذي جادت به مزرعته. ما كادت أم متولي تسمع صوت المضخة حتى هبت من نومها لتساعد ابنها. كانت قد أعدت لفطوره قطعة من الجبن المخزون في الجرة وتقفز منه بين حين وآخر كائنات حية دقيقة هي يرقات أحد أنواع الذباب التي يعتقد أهل القرية أنها من مركبات المش فأصبحوا لا يشمئزون منها .

مازال الجو باردًا في هذا الصباح الباكر، ولكن يتحتم على متولي أن يغادر البيت قبل أي تلميذ من زملائه سكان المدينة بمقدار ساعة على الأقل ليضمن الوصول إلى المدرسة في الموعد المطلوب .

وهكذا أصبح متولي تلميذًا، والتلميذ ينبغي أن يذاكر دروسه، أين سيذاكر؟ إن البيت يتكون من غرفتين، الأولى تستعمل نهارًا للجلوس والأكل، حتى إذا جاء

الليل انقلبت إلى حجرة للنوم حيث تفرش في أحد أركانها مرتبة قذرة ينام عليها درويش وزوجته، وفي ركن آخر من الغرفة توجد دكة، اِكْتَفَتْ بالوقوف على ثلاث أرجل واستعيض عن الرِجل الرابعة بقطعة حجر، وهذه تستعمل لنوم متولي ولمذاكرته أيضًا، حيث يجلس ويفتح الكتاب أمامه ويضع مصباح البترول على الجزء المنبسط من النافذة الذي يمثل سمك جدار الغرفة. أما الغرفة الثانية التي يطلقون عليها اسم «القاعة» فتستعمل للنوم شتاء حيث يشتد البرد وهي مزودة بفرن متسع يحمّى بإشعال قدر من الحطب فيه قبيل النوم وتنام العائلة فوقه .

أقبل الشتاء، وبدأ متولي يبغض هذا الفصل من العام بغضًا شديدًا فالرحلة من البيت إلى المدرسة شاقة عندما لا تكون هناك أمطار، فما بالك والمطر منهمر والأرض طين موحلة .

أخذ متولي يشق طريقه نحو المدرسة رافعًا قدميه بصعوبة وهو يخوض في الأوحال المتراكمة. في ذلك اليوم لم يتمكن من الوصول إلى المدرسة في الموعد المحدد .

توجه نحو الفصل فاستقبله المعلم بوجه عابس قائلًا :

- لماذا تأخرت؟

- الأوحال التي في الطريق عاقتني عن السير السريع .

- من أية داهية تأتي؟

- من قرية صغيرة بعيدة عن المدينة .

هوى المدرس بكفه على وجه متولي فأشبعه صفعًا وصار جسده يهتز هزًا عنيفًا ثم صاح المدرس قائلًا :

- لن أسمح لك بدخول الفصل إذا تأخرت مرة أخرى، فليست المدرسة زريبة بدون بواب تحضر إليها متى تشاء .

- خرجت من بيتي منذ ساعات ولكن الأرض موحلة والمسافة طويلة .

صفعه المدرس صفعة قوية أخرى هوت فوق أذنه وكان متعبًا مما قاساه طوال الطريق فترنح وسقط على الأرض فاقد الوعي. بكى بعض التلاميذ من أجله في صمت وتقدم تلميذان حملاه على أكفهما وأوصلاه إلى غرفة طبيب المدرسة ثم عادا إلى الفصل قال أحدهما لزميله :

- إنه خفيف كالريشة .

لما حاول الطبيب إسعافه هاله منظر الفانلة المهترئة التي تحولت إلى ما يشبه نسيج العنكبوت. بذل الطبيب مجهودًا كبيرًا حتى بدأ متولي يفيق من إغمائه، رأى

الدنيا من خلال عينيه غائمة وهو نصف مستيقظ، فظن الطبيب والده فاحتضنه وبكى وهو يقول :

- أنا تعبت يا أبي، لا أريد الذهاب إلى المدرسة .

أفاق متولي وعاد إلى فصله مطأطئ الرأس شاحب الوجه. كانت جرثومة الضمير قد بدأت تصحو في صدر ذلك المدرس فأخذ يلاطفه فانفجر متولي باكيًا من جديد. أخرج المدرس من جيبه قلم رصاص وأعطاه لمتولي تَرْضية له فأخذه وجلس في مكانه منطويًا على نفسه .

عندما عاد إلى بيته في المساء كانت آثار الإعياء الشديد بادية على وجهه فانزوى في ركن الغرفة، وحانت منه التفاتة فوجد أباه يبكي، وعندما دخلت أمه لاحظ متولي آثار الدموع في عينيها، ولما استوضحهما الأمر أخبره أبوه أن الجاموسة ماتت، زلت قدمها فسقطت في المستنقع .

ذُبِحت الجاموسة وبيع لحمها لأهل القرية الذين أسهموا في شرائه لا حبًا في أكل اللحم، هذا شيء روضوا أنفسهم على الحياة بدونه ولكن رغبة في مساعدة ذلك الرجل المنكوب الذي فقد أعز صديق. شاركهم متولي البكاء، ثم حانت ساعة النوم، ولم يذاكر متولي دروسه في تلك الليلة، وبعد برهة كان جميع أهل المنزل في سبات لا يدري أحد ما إذا كان عميقًا أم غير عميق .

انهمر المطر غزيرًا في تلك الليلة، وبعد فترة هب متولي من نومه، فلقد بدأ المطر ينفذ من خلال السقف في مواضع الضعف فيه، وهي كثيرة، وتساقطت قطرات من المطر فوق درويش وزوجته أيضًا فاستيقظا .

أسرعت الأم وأحضرت بعض الأواني ووضعتها على أرض القاعة فوق الفرن الذي ينامون على سطحه. كان في ركن الغرفة طشت كبير وفي منتصف سطح الفرن إناء من نحاس، وتناثرت الأطباق في مناطق متفرقة تستقبل المطر المتساقط من السقف. لم يكن هذا المنظر غريبًا على متولي فلقد اعتاد ذلك في الليالي الممطرة، وكم من ليلة تعذر عليه النوم وسط تلك الأواني المتناثرة والأصوات المتنافرة. توقف المطر بعد أن أرق العائلة فترة غير قصيرة فجمعت الأم الأواني بما فيها من ماء وأخرجتها من القاعة التي اتخذت طابعها الأول واستأنف الجميع النوم .

بينما كان متولي عائدًا من المدرسة ظُهر أحد أيام الخميس، أقبل على القرية فوجد حركة غير عادية، سأل عن السبب فأخبروه أن هذه مواكب الانتخابات، وهم الآن في موسم انتخابات مجلس النواب .

سار متولي بين جموع أهل القرية المحتشدين فوجد قافلة من السيارات تتقدمها سيارة فاخرة اتكأ على مقاعدها بعض عِلية القوم. أخذت السيارات تشق طريقها بين الأزقة القذرة وتتأرجح فوق أكوام تنبعث

منها روائح كريهة، وتوجهت في النهاية نحو دوار العمدة، فنزل من بالسيارات يتقدمهم راكبو السيارة الأمامية حيث استقبلهم العمدة مرحبًا بمقدمهم، كما رحب بباقي الضيوف وجلس الجميع في الدوار وهتافات أهل القرية تتوالى .

وقف رجل تبدو عليه مظاهر النعمة وأخذ يتدفق في خطاب طويل فهم منه متولي أن ذلك الرجل مرشح لعضوية مجلس النواب وهو يحاول إقناع أهل القرية بأن يمنحوه أصواتهم، ولا تشعر القرية بأنها جزء من الدولة إلا في ذلك الموسم، موسم الانتخابات، حيث تنهال عليها مواكب المرشحين .

استرسل الخطيب في خطابه فأدرك متولي أن القرية بفضل هذا الخطيب سوف تُرصف طرقُها كما هي الحال في البندر، وتُبنى المساكن الصحية بالطوب الأحمر الجميل، وتضيؤها الكهرباء وتفتح فيها المدارس ويردم ذلك المستنقع الآسن الذي يهدد أهلها بالملاريا، فشعر بالسعادة تغمره فالقرية ستصبح مثل المدينة المجاورة، ولن يسير في الأوحال ولن يستعمل مصباح البترول خافت الضوء، ولن يتجشم عناء الذهاب إلى المدرسة البعيدة سيرًا على قدميه، وانطلق يعدو ليزف إلى أبيه البشرى .

نظر إليه الأب بعينين حزينتين وقال :

- يا ابني، لقد عشتُ في هذه القرية أعوامًا طوالًا وسمعت هذه الكلمات نفسها في كل موسم من مواسم الانتخابات، ولكن على الرغم من ذلك فها هي ذي القرية كما هي، الطين نفسه والفقر نفسه .

ثم ابتسم درويش ووضع يده على كتف ابنه قائلًا :

- هذا الرجل الذي سمعته اليوم هو نفسه الذي انتخبناه من قبل مرات عديدة، وفي كل مرة كنا نصدقه .

ثم أطرق إلى الأرض وتمتم قائلًا :

- لن تتقدم القرية إلا بك يا متولي لا بأمثال هؤلاء الوافدين، لقد وضع جميع أهل القرية أملهم فيك .

نظر متولي إلى أبيه مدهوشًا وقال :

- أنا؟ !

- نعم، أنت. ستكون نائب القرية في يوم من الأيام، وعند ذلك نرجو الخير الكثير .

منذ ذلك اليوم تمنى متولي أن يصبح نائبًا في البرلمان فيحقق لقريته ما سمعه الليلة من الخطيب الفصيح. ومع مرور الأيام أخذ أهل القرية يرون في متولي أملهم المنشود ويتعجلون نموه ليصبح نائبهم الذي يأخذ بأيديهم وينتشلهم من هذه الهوة السحيقة .

ولكن في صيف أحد الأيام صحا متولي من نومه وهو يرتعش من شدة وطأة الحمى وشعر ببرد شديد يسري في جسده. أخذ البرد يعاوده كل يومين، إنها الملاريا، حملتها إليه بعوضة توالدت في المستنقع الذي ابتلع جاموستهم من قبل، وأخذ وجهه يزداد شحوبًا يومًا بعد يوم، وكثر هذيانه عن إصلاح القرية والبرلمان .

ولكن القرية لم تُصلح، ولم يهتم بإصلاحها أحد، بل ظلت كما هي تحد جنوبًا وشرقًا وغربًا بمستنقع كبير يتوالد فيه البعوض، وتحد شمالًا بالمقابر التي ضمت مقبرة جديدة من الطين تحتضن جسد متولي .

عام 1951

بدون عنوان

انطلق يعدو في صحراء ممتدة إلى ما لا نهاية، ثم شعر بنشوة عند هطول المطر. وعندما توقف المطر حدق ناظرا نحو الأفق البعيد مترقبا ظهور ألوان قوس قزح. لقد كان يوما طويلا، مليئا بالأحداث، مسليا، فلم يشعر بمرور الوقت. وضع يده الصغيرة في جيب سترته وأخرج منها الصورة وحمد الله على أن لم يمسسها المطر. إنها صورة المنزل الذي يبحث عنه. منزل جميل بألوان خلابة؛ النوافذ زرقاء تطل منها أحواض الزهور متعددة الألوان، السطح أصفر كلون طائر الكناريا الجميل، تزينه بعض الزخارف المشمشية والجدران أرجوانية تكاد تغطيها النباتات المتسلقة متباينة الاخضرار، أما الباب فهو قرمزي اللون .

يحيط بهذا المنزل الجميل في الصورة حديقة مليئة بالورود الحمراء والصفراء والبنفسجية ويحتضن المنزل عدد كبير من أشجار الفاكهة الناضجة، بعضها متناثر على الحشائش الخضراء التي تكسو أرض الحديقة. وتظهر في الصورة خلف المنزل سماء ملونة بكل درجات ألوان قوس قزح تتخللها أشعة الشمس التى تطل من الخلف. عليه أن يبحث عن هذا المنزل. أدار بصره في أنحاء المكان فلم يجد أي أثر للمنزل ولا لأي منازل على الإطلاق. لم تكن هناك لا أشجار ولا ورود،

فجلس القرفصاء علي الأرض وأسند رأسه على يديه محملقا في ألوان قوس قزح الجميلة وكأنه لا يرى في هذه الصحراء الشاسعة سواها. تلاشت الألوان شيئا فشيئا مع حلول الظلام، ولما استيقظ من النوم كانت الشمس ساطعة في أبهى صورها .

شعر بالجوع، فانطلق يعدو باحثا عن طعام، ولكنه اصطدم بشيء ما، فتعثر وسقط على الأرض. نظر إلى أعلى فرأى شيخا طاعنا في السن، يرتدي جلبابا ومتكئا على عصا. تلاقت نظراتهما، فابتسم له الشيخ قائلا :

- عما تبحث يا بني؟

- عن هذا .

وأخرج من جيبه الصورة وأعطاها للشيخ الذي نظر إليه بحنان قائلا :

- وهل من المعقول أن يوجد بيت كهذا في الصحراء؟

أشار بيده نحو اليمين قائلا :

- سر يا بني في هذا الاتجاه فستجد ما يؤويك .

- سأجد البيت ! البيت الجميل ذو ألوان قوس قزح .

وانتزع الصورة من الشيخ ووضعها في سترته وانطلق يعدو في طريقه. لم يضنيه طول الطريق بل زاده

انتعاشا ولمح سحابا في السماء فعرف أن المطر سيهطل ثم يظهر قوس قزح بألوانه البهيجة. إنه يحب هذه الألوان! شعر وكأنه يستمع في ذهنه إلى موسيقى شجية سريعة الإيقاع وانتابته نشوة جعلته يقفز قفزات مرحة أثناء عدوه، ولكنه فجأة وقف ساكنا. وجد نفسه أمام سور خشبي قصير لحديقة. ولدهشته كانت الحديقة مليئة بالأزهار الملونة والأشجار الباسقة التي تكاد تلامس السماء، محملة بكل ألوان الفاكهة، رائحتها الزكية تملأ المكان . لقد وجد المنزل! نعم، إنه هو بنوافذه الزرقاء التي تطل منها أحواض الورود الملونة، وها هي الجدران، أرجوانية والسطح أصفر كلون طائر الكناريا! إنه المنزل الموجود في الصورة !

دخل الحديقة ووقف تحت إحدى الأشجار وأسند عليها ذراعه وابتسم سعيدا. وجد على الحشائش تفاحة حمراء طازجة، ولما انحنى ليلتقطها سقطت الصورة من سترته. التقط الصورة وأمسك بالتفاحة، فقطمها مُلتذا، وبعد أن انتهى من أكلها هم بوضع الصورة في جيبه ولكنه رأى فيها شيئا عجيبا أذهله. لم يكن المنزل الذي يراه في الصورة مطابقا للمنزل الذي يقف في حديقته .

بدا المنزل في الصورة الآن أزرق بلون السماء، وردى النوافذ. لم يكن في النوافذ أحواض للزهور وكانت الأشجار شديدة الاخضرار تطل منها العصافير. كانت الحديقة في الصورة غنية بالورود الحمراء، كما ظهر في

الصورة عدد هائل من الفراشات المختلفة الألوان، يكاد أن يراها كما لو كانت تتحرك متطايرة في الصورة. بدت الحديقة أصغر حجما من الحديقة التي يقف فيها الآن. تعجب كثيرا فالمنزل الذي كان يبحث عنه وكان قد رآه في الصورة مختلفا عن الصورة التي يراها الآن .

شعر بوحشة وكاد يبكي وعندئذ أطل من النافذة وجه سيدة سمحة الملامح. نظرت إليه وحانت منها ابتسامة ساحرة، ثم رأى باب المنزل يفتح ويخرج منه رجل متوسط العمر، نظر إليه ثم فتح ذراعيه مبتسما. شعر بشيء ما يدفعه نحو هذا الرجل فوجد نفسه ينطلق إليه راكضا ويرتمي بين ذراعيه. احتضنه الرجل وحمله وأخذ يهمهم بكلمات غير مفهومة ولكنها جميلة النغمات. جلسا معا على أرجوحة وبدأ الرجل يحركها بقدميه بخفة وبدا الكون كله وكأنه يتأرجح فاختفى هذا الشعور بالوحشة وانتابته نشوة. واختلطت هذه النشوة بهمهمة الرجل وابتسامة السيدة من النافذة وألوان الحديقة والمنزل ورائحة الفاكهة، وبعدئذ لم يعد يشعر بأي شيء .

وفي الصباح بدت الشمس مختبئة خلف سحب تزحف في السماء فوق الصحراء الشاسعة . أدار ببصره فلم يجد المنزل الجميل بحديقته الخضراء المثمرة. شعر بحنين شديد لرؤية وجه السيدة ذات الابتسامة الساحرة التي كان قد رآها تطل من نافذة المنزل

وتعجب: أين ذهب المنزل ذو ألوان قوس قزح؟ فهو لا يرى الآن سوى صحراء مترامية الأطراف وأشباح في الأفق تشبه التلال وصمت مخيف يسود المكان. ذكره هذا الصمت بهمهمة الرجل الذي كان يحتضنه على الأرجوحة، كم كان ذلك جميلا ! حينئذ تذكر الصورة، وتذكر أنه قد رأى فيها منزلا مختلفا. أخرج الصورة من جيبه ونظر إليها جيدا.. منزل أزرق اللون وردى النوافذ وحديقة مليئة بالزهور الحمراء وتملؤها الفراشات وأشجار خضراء تسكنها العصافير. ولكن الصورة كانت مختلفة عما قبل وتعجب كيف تغيرت الصورة !

لم يفكر في الأمر كثيرا فقد بدأ المطر يتساقط غزيرا ولم يشعر هذه المرة بتلك النشوة التي شعر بها عند هطوله من قبل، كما أنه لم يعد يترقب ظهور قوس قزح فلم تعد لألوانه أهمية بالنسبة له، فالمنزل الذي يبحث عنه الآن له ألوان مختلفة يسعى إليها. كان يريد أن يظل ناظرا إلى لون السماء الجميل، هذا اللون الأزرق الصافي، وشعر برغبة شديدة في العثور على المنزل الموجود في الصورة. سار منشغلا بالبحث عن مكان يحتمي فيه من هذا المطر الذي أصبح الآن كالستار، لا يكاد يرى ما يخفيه. وفجأة، بدأ المطر يهدأ وأخذت الرؤية تتضح شيئا فشيئا. وعندما سكت المطر تماما ظهرت الشمس من جديد، ووجد نفسه أمام منزل مثل الموجود في الصورة. لم يصدق عينيه.. بدا المنزل جميلًا بهيًا بألوانه الحالمة. داعب أنفه عبير الزهور

والتقطت أذناه شدو العصافير فنظر للأشجار ورآها تشبه تماما تلك التي كانت في الصورة وقد بدت أقصر من الأشجار في المنزل ذى ألوان قوس قزح . استمرت الطيور تردد أنشودتها وكأنها ترحب بقدومه. وانطلقت الفراشات الجميلة تغازل الورود فبدت ألوانها متناسقة جميلة أمام خلفية المنزل الزرقاء. أدار ببصره في أنحاء المكان ليتأكد من أنه المنزل المنشود. إنه هو.. تماما .

أطل من النافذة وجه فتاة جميلة، وبعد برهة رآها تفتح باب المنزل مرتدية ثوبا أنيقا بلون الأزهار. سارت نحوه بجمالها الأخاذ وقوامها الممشوق، فشعر بدقات قلبه سريعة وتذكر أن المطر قد بلل ملابسه فأحس بشيء من الخجل. تقدمت الفتاة وسألته :

- هل أستطيع أن أقدم أي مساعدة؟

فتلعثم قائلا :

- هذا هو منزلي الذي أبحث عنه .

- منزلك؟

- نعم، انظري، إنه هنا في الصورة. ها هو .

بأصابع رشيقة، أخرج الصورة من سترته وأعطاها إياها. نظرت للصورة وقالت بدهشة مصطنعة :

- ولكن المنزل الموجود في الصورة مختلف تماما عن هذا المنزل .

- مستحيل !

- انظر .

نظر فوجد الصورة وقد تبدلت تماما. لم يصدق عينيه عندما رأى فيها منزلا آخر، عاجي اللون، وبدت الحديقة أصغر بدرجة كبيرة، أشجارها جافة عارية فيما عدا بضعة أشجار قصيرة ظلت محتفظة بلونها الأخضر. وفي أحد أركان الصورة رأى حبلا مربوطا بين شجرتين معلقا عليه بعض الملابس الباهتة الألوان. بدت الحديقة خالية من الورود، أما الأرض فكان يغطيها التراب. لم يعجبه المنزل الذي رآه في الصورة وشعر بوحشة ورغبة في البكاء ولكنه تمالك نفسه. اعتذر للفتاة وهم بالانصراف ولكنها نادته قائلة :

- لا بأس من ضيافتك إن كنت قد قطعت كل هذه المسافة لتأتى إلى هذا المكان. الجو بارد والغروب وشيك. تفضل وسأعد لك فنجالا من الشاي .

أسرعت دقات قلبه وقد بدأ يجتاحه شعور غريب لم يعرفه من قبل. اجتازا الحديقة ثم دخلا المنزل معا. وجد نفسه في بهو أنيق دافئ فبدأ يشعر براحة شديدة

كأنه كان يبحث عنها، وحينئذ فقط أدرك كم كان متعبا وكم كان الجو باردا خارج المنزل .

- هل أعد لك بعض الطعام قبل تناول الشاي؟ تبدو متعبا يا مسكين .

فجأة شعر بجوع شديد وتذكر أنه لم يكن قد تناول أي طعام منذ الصباح، ولكن كيف عرفت الفتاة احتياجاته هذه؟

تناولا الطعام معا ثم جلسا على الأريكة المطلة على الحديقة وأخذا يشربان الشاي. شعر برغبة شديدة في البقاء مع هذه الفتاة الجميلة. قامت وجلست إلى جواره فشعر بسعادة غامرة ثم وضع رأسه على كتفها. تشابكت أياديهما وظلا ينظران من خلال النافذة على الورود الحمراء والفراشات الملونة التي بدأت تختفي شيئا فشيئا مع الغروب، واختلط آخر أصوات العصافير بصوت رجل يبكي في الظلام .

لما صحا من نومه لم يجد الفتاة بجواره. نظر من خلال النافذة فلم يعد يرى الورود الحمراء ولا الحشائش الخضراء. لقد اختفت الفراشات وأصبحت غصون الأشجار جافة والأرض يغطيها التراب . قام وخرج إلى الحديقة ومشى نحو السور، ثم استدار ونظر للمنزل. إنه منزل آخر، ذلك المنزل الذي كان قد رآه في الصورة في المرة الأخيرة. بدا المنزل بلا لون تقريبا، ربما يحتاج

لطلاء، وها هو الحبل، مربوط بين شجرتين، معلقا عليه بعض الملابس الباهتة. أطل وجه طفلة صغيرة من النافذة، وما أن رأته حتى قفزت من النافذة وهرولت نحوه قائلة :

- أين كنت؟ بحثت عنك طوال اليوم ولم أجدك .

شعر بإحساس قوي يشده نحو الطفلة .

- ها أنا ذا . لماذا كنت تبحثين عني؟

- لقد وعدتني بأن تصنع لي أرجوحة .

- كيف؟ ليس هناك حبل .

قالت بخبث :

- لماذا لا تستعمل هذا الحبل المعلق عليه الملابس؟

أزاح الملابس من فوق الحبل وبينما هو يهم بربطه في جذع الشجرة ليصنع منه أرجوحة، سمع صوتا غاضبا يعنفه. التفت فرأى سيدة. كم كانت تشبه الفتاة التى كانت معه في منزل الورود الحمراء والفراشات، المنزل الأزرق بلون السماء الصافية. رآها الآن واقفة عند باب المنزل ولكنها بدت مختلفة، ترتدى ملابس كئيبة، شعرها مُهْمَل ونظراتها شريرة، كالساحرة التي تظهر في قصص الأطفال المرعبة .

- هل جننت؟ تلقي بالملابس هكذا لتعبث بالحبل! هل ينبغي علي أن أصرخ فيك كل يوم لحماقاتك التي لا تنتهي؟ اخرج من هذا المنزل فأنا لا أريدك هنا .

حانت منه التفاتة نحو الطفلة فوجدها تبتسم ابتسامة خبيثة ولاحظ أن ملامح وجهها قد تبدلت وتحولت إلى ما يشبه ملامح تلك السيدة ذات النظرات الشريرة. لم يصدق عينيه وسرت في جسده رجفة خفيفة. وجد الطفلة تقهقه ثم تجري نحو السيدة التي شاركتها القهقهة .

شعر بشيء من الراحة وهو يغادر المكان وأخذ يسرع الخطى، وكلما ابتعد، دوت في أذنيه قهقهة كريهة وأصوات صراخ مختلطة في ذهنه بنظرات غاضبة، وابتسامات خبيثة ثم رأى أمامه حبلا يتأرجح وسمع صوت رجل يبكي في الظلام .

عندما عاد إلى وعيه شعر ببرد شديد ووحشة قاتلة، وشعر بحنين شديد لمنزل قوس قزح الجميل وابتسامة السيدة الساحرة الحنون وهمهمة الرجل الذي احتضنه على الأرجوحة، وتعجب أنه لازال يتذكر هذه الأشياء، فقد مر عليها زمن بعيد. وفجأة اقشعر بدنه عندما تذكر منزل الفراشات والورود الحمراء الذي تحول إلى كابوس مخيف. شعر بعدم راحة فأخرج الصورة من جيبه .

لم يدهش هذه المرة عندما وجد المنزل يظهر في الصورة مختلفا تماما عن المنزل السابق. نظر باستسلام وقد أدهشه هذا الخنوع . لم يتفحص تفاصيل المنزل، فلقد سمع صوتا مرعبا ثم تذكر أنه كان قد لمح برقا في السماء وعلم أن الأمطار وشيكة. استبد به القلق، والشعور بالوحدة، وتمنى أن يصل إلى بيته قبل هطول المطر، فقد بدأ يشعر بالتعب .

بدأ المطر ينهمر فشعر بمزيد من البرد والخوف بينما استمر صوت الرعد يدوي في الفضاء. اختلط صوت الرعد بصوت رجل يناديه، فلما التفت وجده الشيخ نفسه الذي كان قد ظهر له في أول الطريق وهو يعدو باحثا عن منزل قوس قزح. ولكن الشيخ بدا أصغر سنا بعض الشيء عن ذي قبل، ذلك عندما رآه في أول الطريق. نظر إليه نظرة عطوفة قائلا :

- أما زلت تبحث عن منزلك؟

- أضناني التعب .

- لابد من مواصلة البحث .

- لا أشعر برغبة في ذلك. لا أقوى على السير والبحث من جديد .

- قد يكون ما تبحث عنه قريبا، أقرب مما تتصور .

كان المطر قد توقف، فالتفت ورأى أمامه مسكنا قصيرا من طابق واحد. كان المنزل رمادي اللون ولم تكن به أي نوافذ، تقف بجواره شجرة واحدة. تعجب من هذا المسكن الغريب ثم تذكر أن عليه البحث عن منزله، فأخرج الصورة من جيب سترته. كان المنزل في الصورة مطابقا تماما للمسكن الذي يراه أمامه! ولكن كيف يعيش في منزل ليست به نوافذ! شعر بتعب شديد وبرغبة قوية تدفعه للدخول رغم مخاوفه من هذا المكان. أدار ببصره فإذا بالشيخ العجوز لا يزال واقفا ينظر إليه، ثم قال :

- لا تخف، فهذا المنزل حقيقي وليس سرابا. لقد قلت لك من قبل، هل من المعقول أن يوجد منزل بألوان قوس قزح وسط حديقة مليئة بالثمار والورود في هذه الصحراء! ادخل ولا تخف .

- ولكنني أسمع صوت رجل يبكي في الظلام .

بنبرة عطف ووجه مريح، قال الشيخ :

- ادخل يا بني. ادخل ولا تخف .

دخل. وعندما دخل توقف صوت البكاء .

عام 2002

1 أبيات الشعر لد. يوسف عز الدين عيسى .

قالوا عن هذه المجموعة

إن مجموعة القصص هذه تجعلك تقرأ وتتأمل في نفس الوقت، إنك تدرك أنك أمام قاصٍ لا يحكي عليك حكاية عادية، إنما يقص عليك عملا إبداعيا، تشعر بعد أن تنتهي منه بمتعة فنية فائقة ورؤية فلسفية، وتحاول أن تجد لعلامات الاستفهام، التي تبرز في ذهنك إجابات عليها، ورغم ذلك فإنك سوف تشعر بلذة البحث عن المجهول .

«مأمون غريب، آخر ساعة »

في هذه الأعمال، تشعر وكأنك فيما يشبه الحلم، الأسلوب السريالي يخيم على القصص، ولكن الجانب الإنساني يسيطر على كل شيء .

ولكن تُرى ماذا تقول لنا هذه القصص، أهي مجرد حكايات عجيبة؟! أنا أجدها قصصا مليئة بالمعاني، إنها تكشف عن كل قلاقل ومخاوف الإنسان الداخلية، وهذا ما يجعلني أُعْجَبْ بيوسف عز الدين عيسى. أعتقد أنه كان في قمة الصدق والعمق في تحليله لأحوال البشر، وأن لديه الشفافية والشجاعة المطلقة التي تسمح له بكشف الحقائق، حقائق تتعلق بما يخفيه الغد من هواجس وهموم، هذا هو الفكر الذي يكتبه العظماء من الكتاب، من يكرسون أفكارهم وعطاءهم من أجل

الحقيقة ويجعلون الفكرة والأبطال يحلقون نحو أبعاد لا حدود لها، أعمال يوسف عز الدين عيسى تدل على حبه للجمال وللحياة، وهذا إلى جانب تمتعه بخفة الظل. إنه يعبر عن تعاطفه مع البشرية من خلال تعاطفه مع شخصياته .

«جاستن سيباريل، المستشار الثقافي، المركز الأمريكي »

إنه أدب أقرب إلى الخيال الفلسفي، وأن البطل عند الدكتور يوسف عز الدين عيسى هو الفكرة، ويستخدم الرمز والعلم والشِّعر والخيال المبطن بالسخرية والحلم كأدوات لعرض هذه الفكرة لتعبر عن الوجود الإنساني .

«يوسف الشـاروني، برنامج صاحب الدعوة »

إن يوسف عز الدين عيسى، وإن رحل، مازالت كلماته تبعث في النفس سر الفن الحقيقي، عندما تحملنا ولو للحظات قصيرة بعيدا عن تفاهات وصغائر الحياة اليومية لنطرح على أنفسنا كل التساؤلات عن حقيقة الإنسان وسر الحياة .

«سناء صليحة، الأهرام »

في هذه «المجموعة » الرائعة للدكتور يوسـف عز الدين عيـسى، كل سطر يحمل معنى شديد الغور، جملا تشي

العقل بالكثير، رحم الله د. يوسف عز الدين عيسى، فكيف كان يعيش بكل إشعاع عقله هذا؟ !

«د. جيلان حمزة، الأهرام »

المؤلف في سطور

دكتور «يوسف عز الدين عيسى » أحد الشخصيات البارزة في القرن العشرين، فهو أديب ومفكر مصري، حصل على جائزة الدولة التقديرية في الأدب 1987 ، وله مدرسة خاصة في الكتابة، حيث يختلط الخيال والحلم بالواقع بشكل رمزي، ليخلق تحليلا دقيقا لعالمنا الحديث الواقعي الذي نعيشه اليوم .

جمع بين العلم والأدب في أعلى درجاتهما، فهو أيضا أستاذ جامعي بكلية العلوم، حصل على الدكتوراه من جامعة «شيفيلد » بإنجلترا، واختارته منظمة «فولبرايت » أستاذا زائرا في جامعتي بركلي واينوي في الولايات المتحدة، مارس التدريس الجامعي والبحث العلمي، وأشرف على مئات الأبحاث، وشجع الأنشطة الثقافية والإبداعية في الجامعة، وقد عمل أيضا رئيسا للقسم، وأنشأ قسم علم الحيوان في جامعات أخرى في نفس الوقت، هو أيضا الأديب الحاصل على أعلى الأوسمة في هذا المجال، واستمر يجمع بين العلم والأدب حتى آخر يوم في حياته .

والدكتور يوسف عز الدين عيسى مارس كل أنواع الأدب: رواية، قصة قصيرة، مسرح، شعر. هو أيضا رائد الدراما الإذاعية والتليفزيونية في مصر والشرق

الأوسط، وتتميز كتاباته بالتشويق الشديد والأسلوب السلس .

أعمال الدكتور يوسف عز الدين عيسى متنوعة لتنوع ثقافته، تأثر كثيرا بروح العصر بكل ما فيه من علم وأدب وفلسفات وفن وموسيقى وكل مظاهر الحداثة، ورغم أنه في أعماله دائما يتحدث عن الإنسان وحقيقة الوجود ويغوص في النفس البشرية ليصل إلى أغوار البشر فإن أسلوبه سهل شاعري يشد القارئ إلى آخر كلمة، وتتميز أعماله باستعماله للرمز لإظهار الفكرة في العمل، وهو يدخل في سياق الأدب الفكري، فهو له مضمون ورسالة يبغي أن تصل للمتلقي، ولذلك فهي فريدة في الأدب العربي .

لقد كتب دكتور يوسف عز الدين عيسى تسع روايات : «الواجهة » و «عواصف » و «العسل المر » و «الرجل الذى باع رأسه » و «لا تلوموا الخريف » و «التمثال » و «عين الصقر » و «ثلاث وردات وشمعة » و «الأب » ، وله مجلدان في القصة القصيرة : «ليلة العاصفة وقصص أخرى » و «البيت وقصص أخرى » ، ومجلد «نريد الحياة ومسرحيات أخرى » ، و له عدد كبير من الأشعار والأغاني إلى جانب كتاباته للدراما الإذاعية التي تصل إلى حوالي أربعمائة عمل .

إلى جانب الأعمال الأدبية، كتب الدكتور «يوسف عز الدين عيسى » ما يفوق المائة مقال وعمود أسبوعي

في جريدة الأهرام وغيرها من الصحف والمجلات الكبرى في مصر والعالم العربي، وقد كتب أيضا مقالات تحليلية قدم فيها أدباء عالميين إلى العالم العربي، وقد شارك د. يوسف عز الدين عيسى في مئات الندوات الثقافية، وقدم أدباء شبانا للحلقة الفكرية، وكان أيضا رئيسا لنادي القصة، وعضوا بالمجلس الأعلى للثقافة والفنون، وعضوا في اتحاد الكتاب ومستشار تحرير مجلة الشاطئ، ومدير التحرير الثقافي لجريدة «الأيام » ، ويعود له فضل إنشاء قسم المسرح بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

في عام 1987 ، مُنح جائزة الدولة التقديرية في الأدب، وهو أول أديب مصري يُمنح هذا التكريم وهو يعيش خارج العاصمة (الإسكندرية)، وحسب حيثيات اللجنة، أنه أسس مدرسة جديدة في الكتابة الأدبية تأثر بها الكثير من الأدباء، وكان الدكتور يوسف
عز الدين عيسى قد حصل على جائزة أخرى من الدولة أيضًا عام 1978 لأعماله الإذاعية، وقد ذكرت اللجنة أن من ضمن حيثيات حصوله على الجائزة، أن «تحولت الدراما الإذاعية على يديه إلى نوعٍ رفيعٍ من الأدب ».

ومن الأوسمة الأخرى التي حصل عليها الدكتور يوسف عز الدين عيسى، وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى مرتين، عام 1979 ، ومرة أخرى عام 1988 ، ووسام الجمهورية عام 1981 ، واليوبيل الفضي

والذهبي للإذاعة والتليفزيون، وقد منح الدكتور يوسف عز الدين عيسى وسام «فارس الأدب » في عام 1999 ، وكان ذلك قبل رحيله بأشهر قليلة وقد منح هذا الوسام؛ «لدوره الرائد في إثراء الحركة الأدبية ».

وقد اختير الدكتور يوسف عز الدين عيسى كأفضل شخصية أدبية في مصر لعامي 1998 و 1999.

في عام 2001 ، سُميت قاعة المحاضرات في مركز الإبداع «قصر ثقافة الحرية سابقا » ، بقاعة «الصالون الثقافي ليوسف عز الدين عيسى » ليكون اسمه رمزا للعطاء الفكري .

الموقع الرسمي لد. يوسف عز الدين عيسى

eassa1914@yahoo.com

الصفحة الرسمية على موقع koobecaf

Youssef Ezeddin Eassa